

مَنْصُورَةٌ عَزَّ الدِّين

أَطْلَس الْخَفَاء

رواية



دار الشروق

كان مراد واثقاً من وجودها هناك.

في مكان غير مرئي أو ملموس، تفصله عنها طبقات متراكمة من البيضة والنسيان.

بلادٌ وأراضٍ لا تشبه ما يصادفه في الواقع، تزوره متقطعة كما لو أنها العالم في حالته الشذوية، أو الكون وقد استحال نثاراً. كانت تفتنه، لكن لظالماً ألمه أنه لا يكاد يُلمُّ بها - لاحقاً - إلا كمشاهد عابرة ومتطايرة في سماء ذاكرته، لا تتيح له رسم خريطة كلية لها.

قبل قليل - مثلاً - رأى نفسه سائرًا في فضاء من حقولٍ مزروعة، وأخرى محروثة في انتظار أن تُزرع وتُروى.

على يمينه كرمة كأنها سورٌ ممتدٌ بموازاة الحقول. كانت لتطربه رؤية الأعناب - التي يحبها - لولا أنها بدت جافة لا أثر للخضار فيها.

أوجعه قلبه لمعاينة كل هذا اليباس، لكنّ النباتات اليباعة، في أرضٍ تلوح من بعيد، طمأنته على أن العالم لم يجذب كله بعد. وحدها أشجار الكروم فعلت، وظلت في خلفية ذهنه مثل شفرة أو علامة.

في لحظة تالية، كان شاهداً على شخص يركض. لم ينطق الراكض بكلمة، ومع هذا عرف هو الجملة المضمره: «سوف أذهب إلى الأراضي المنخفضة».

انتهى الجري بوصول الشخص إلى طبقة منخفضة بالفعل، ومغطاة بالجليد، وطأها كما لو كان ينقل قدمه من درجة سلم إلى الدرجة الواقعة أسفلها. وفكّر مراد - فيما يتابعه - في هولندا، فخطر له أنها حظيت باسمها القديم في لحظة كهذه.

لم يكن هناك بحر في الجوار، ولا من وجود لفكرة التبوليب، فقط حقولٍ لانهائية يسيجها - من جانب واحد - بستان عنب خالي على عروشه، يقف مثل رسالة مفادها أن اليباس مستقبلي كل شيء حي.

بمجرد انتباهه مما كان يختبره، نظر عبر زجاج النافذة، إلى فرع جهنمية بزهورٍ بنفسجية متوهجة. كان جالساً على مقعده المفضل بغرفة المعيشة، والستارة الرمادية مزاحة قليلاً عن مكانها، ما سمح لأشعة الشمس بالتسلل إلى الداخل.

تمنى لو ظلّ في عالمه الخفي غير المكتمل حتى الظهيرة. بدا له هذا الصباح أشبه بالنهايات لا بالبدايات كما يُفترض بالصباحات أن تكون.

من بين ثنايا ذكرياتٍ سحيقة، أتاه صوت جدته خديجة:

«صباح الخير يا لُقمة طريّة، يا قمر الزين يا شمس الضحّيّة!»

كانت الأقدر على تدليله وطمأنته؛ لظالماً مثل مجرد سماع صوتها دواءً شافياً من كل أسقام روحه. لا يتذكر أنه سمع قط تحية صباح أجمل من تحيتها هذه، حين تكون رائحة البال. أحب شمس الضحّي بسبب جدته، وظلّ يتنكّر لها ويحنّ إلى أيامها في هذا الوقت من النهار.

قام بصعوبة وخطا نحو المطبخ. على الرغم من إحساس بالجد، رفض غسل وجهه طلباً للانتعاش. حين يمر بإشراقته من إشراقته، يؤجل الاغتسال ما استطاع. يؤمن بأن الماء إن مسّ أي جزء في جسده، سوف يُطرّد بقسوة من عالم تجلياته، ويترك منبؤداً غير مأسوف عليه في عراء الواقع المتصحر.

فتح علبة الجُبْن، ففوجئ بحشرات تشبه السوس، لا تكاد تُرى لاقتراب لونها من لون المسحوق الداكن الذي اختارته بيتاً لها. مسح عينيه، ودقّق النظر، فتأكد من أنه غير واهم. أفرغ العلبة في القمامة، واكتفى بشظيرة جُبْنٍ مع كوب شاي سادة.

لم يعرف ماذا يفعل بيومه تخيفه الإجازات، يتحاشاها ما أمكنه هذا فكر مرة في أن يقترح على مديره أن يسمح له بالعمل يوم عطلته الأسبوعية، لكنه تراجع - في اللحظة الأخيرة - تجنباً لنظرات الدهشة والاستكار اكتشف أنه يكره فضول الآخرين وتساؤلاتهم أكثر من كرهه لأيام العطل.

بلا شاغل يشغله، ولا عمل يغرق فيه، وجد نفسه يواجه يوم الجمعة دون درع أو ساتر.

جلس في الشرفة ينهي شظيرة الجُبْن، ويشرب شايه المرّ فيما يُقلّب ما تراءى له للتو على وجوهه كافة بينما يضع كوبه الفارغ على طاولة الخيزران أمامه، برقت في رأسه فكرة إعداد أطلس لجغرافيا تجلياته؛ دقتر يُدَوّن فيه - بالكلمات والرسوم - وصفاً لكل الأماكن التي تراءت له وتجسدت أمامه على مدار السنوات الأخيرة.

استعاد ذهنه صفاءه على الفور. كان مدرِّكًا لكونه نسي الكثير منها، غير أن هذا لم يثنه عن عزمه حدس بأنه ما إن يبدأ، سوف تنهال عليه ذكريات مطمورة لاستبصارات منسية، وإن لم يحدث هذا، سيكتفي بتدوين ما يتذكره تنازعه مشاعر الحماس والوجل نبع حماسه من رغبته في تخليد استبصاراته كي لا تتبدد وتسقط في هوة العدم، أما الوجل فسببه الرهبة من الخوض في تلك المساحة غير المطروقة. شعر بأنه على أعتاب أرضٍ خطيرة، لن تبقى حياته كما كانت، بمجرد الخطو فيها.

ارتدى ملابسه، واتجه إلى المكتبة القريبة. لم تكن قد فتحت بابها بعد. جلس في مقهى مجاور وعينه معلقان بمقصده. طلب قهوته السادة وهو يفكر: متى صار الجميع يسمي محال بيع الأدوات المكتبية مكتبات؟!

أزعجه الأصوات الواصلة إليه من الطاولات المجاورة، أثقلت أعصابه بثرثراتها الكنيبة عن تردي الأوضاع الاقتصادية وانخفاض سعر الجنيه أمام الدولار، وما ترتب عليه من غلاءٍ فاحش تمنى لو أنه يعيش ويتحرك في عالم لا صوت فيه: لا أحاديث أو مهمات أو صراخ، لا فرقعات ولا ضجيج ولا نباح أو عواء فكر في أنه يمكنه التضحية حتى بموسيقاه وأغنياته المفضلة وبزقزقة العصافير صباحًا في سبيل بلوغ صمتٍ يشبه ذلك الخاص بإشراقته، فمعظمها يدور في فضاءات انتفت فيها فكرة الصوت من الأساس.

من طفولة سحيقة، داهمته أصوات دُكر صوفي وإنشاد ديني مختلطة بابتهالات ورجاءات وجلة وصراخ أطفال ونداءات باعة جائلين. ضاق صدره بهذا المزيج الضاج، وتضاعف تقديره للسُّكُون.

ترك ورقة مالية على الطاولة، ونهض بسرعة للحاق بصاحب المكتبة. كان الرجل لا يزال يدير المفتاح في القفل، فوقف هو خلفه منتظرًا.

«يا فتَّاح يا عليم، يا رَزَّاق يا كريم»

قال البائع حين انتبه إلى وجوده، ودعا إلى الداخل. أخبره مراد أنه يريد دفترًا كبيرًا خاليًا من الزخرفة، وراح يبحث عنه بنفسه دون انتظار رد.

كانت الدفاتر، في معظمها، بأغلفة لامعة متعددة الألوان، حد تنفيره من فكرته كلها كاد عزمه على متابعة مشروعه الوليد يُثَبِّط، غير أنه تجاهل نفوره وواصل بحثه مكثمًا كل ما لا ينال رضاه جهة اليمين في النهاية عثر على دفتره المرغوب، بغلافه الرمادي من الورق المقوى. بدا قديمًا إلى درجة لم يكن ليُفاجأ مراد معها إن فتحه واكتشف أن صفحاته ممتلئة بالكتابة عن آخرها.

لحسن الحظ، كانت الصفحات بيضاء من غير سوء، تنتظره كي يسودها بما يَوعُّ له. أعاد الدفاتر الملونة إلى أمكنتها السابقة، وقبض على دفتره المختار، متجاهلاً دهشة البائع من ذوقه. دفع الثمن المطلوب وخرج يترنم بمطلع «في الليل لَمَّا جلي».

في غرفة المعيشة، تناول فطيرة بالسكر، اشتراها من مخبز على ناصية شارع في طريق عودته إلى البيت، لا شيء سوى أنها كانت الطعام المفضل لأمه، وجلس إلى طاولة رصَّ فوقها الدفتر وأربعة أقلام حبر: أزرق وأسود وأخضر وأحمر.

لم يعرف من أين يبدأ، فأغمض عينيه محاولاً استعادة استبصارات أفلة، ثم أمسك القلم الأخضر وبدأ في الكتابة وقد عزم على أن يحكي تجلياته بضمير الغائب لا المتكلم فمراد المُستبصر لا يشبه شخصه الضعيف الفاني، بل هو تجسد أرقى وأعلى وأعلم من ذاته. لكنه سرعان ما غير رأيه، وقرر الكتابة بضمير المتكلم، فلا مسافة تُذكر بين حالين للشخص نفسه، وإشراقته ينبغي نسبها له وحده.

شارع واحد في أماكن عديدة

كل شيء مغلف بغمامة أشبه بالضباب: مبنى مدرستي الأولى، البنايات حولها، والمارة القلائل هنا وهناك، أما الأفق فكان منعدمًا؛ استحال إلى مجرد امتداد معتم.

المدرسة خالية، وفصولها مفتوحة الأبواب، وفي الفناء تقف شجرة المانجو المعمرة بجرمها الهائل أدهشني أنها تبديت لي مثقلة بالثمار، مع أن ذكرياتي عنها تخبرني أنني لم أر لها ثمارًا قط في الواقع لم أعد حتى أعرف إن كانت الشجرة لاتزال موجودة أم لا! ما أعرفه أنها حاضرة بكثافة أمامي، كأنها أصل حياتي ومبررها.

تأملت جذعها، فلمحت كونا بأسره: نجومًا وأقمارًا وكواكب معتمة وأخرى شفافة أو ملونة، كل منها يدور في فلكٍ يخصه وحده، والخلفية بلون رمادي يميل إلى الأزرق السماوي. عالم خالي من البشر والحيوان والنبات، فقط أفلاك سماوية في حركة دائبة.

دققت النظر في الجذع، فبهت كل شيء واستحال إلى دخان. رفعت رأسي إلى أعلى، فأبصرت فروع الشجرة وأغصانها لا تزال كما كانت، لكن بفارق وحيد هو أن ثمارها لم تعد مقصورة على المانجو، بل تعدتها إلى التفاح والموز والعنب والتين وفواكه أخرى لم أصادفها في حياتي من قبل.

وجدت المنظر مغويًا بدرجة تفوق قدرتي على الاحتمال، فعزمت على تسلق الجذع الدخاني، وما إن لمستته حتى عاد إلى طبيعته الخشبية وإن أضيفت إليه حراشف وأشواك جرحت ذراعي وخدشت رقبتي.

عادتُ النظر إلى الثمار، فاخترتُ، ثم غابثُ الخضرة جررتُ جسدي بعيداً عن الشجرة، أدركتُ لها ظهري، فبان لي طريق، يشبه الشارع المحتضين لمدرسة طفولتي، غير أنه خالٍ من البيوت الأليفة القديمة أستعيبض عنها بأشجار بابواب على الجانبين، يتجلى من خلفها قمرٌ شهبي يلمع كالألماص.

أورثتني الأشجار إحساساً بالتقزم. في المسافة بين الواحدة منها والأخرى، تراءت لي طرقات لانهائية تفصلها مفارق دائرية.

خلال لحظات راح كل شيء يضمحل ويظهر بدلاً منه الشارع القديم كما عرفته في طفولتي، بمعالمة كافة، قيل أن يخفت بدوره وينبتق من أطلاله شارع ٢٦ يوليو بوسط القاهرة، الذي سرعان ما تتجّر، ليكتشف عن طريق البابواب والقمر الألماسي مرة أخرى.

ران صممتُ عميق، وباغتني خاطرٌ مفاده أن هذا الشارع موجود في كل الأماكن تقريباً، لكنه يتنكر في هياث عديدة، تختفي فيها أشجار البابواب وتنهض بدلاً منها بنايات وأبراج أو حتى جبال وناطحات سحب أو تماثيل ونصب تذكارية.

وأنا وحدي من يحفظ الأصل في قلبه، وحدي من يوسعه تلمسه ورؤية جوهره، مهما بالغ في الاختباء والتسريل بأقنعة وصور مركبة.

عادتني ذكرى غابرة اختلط عليّ فيها شارع الطفولة ذاك بشارع ٢٦ يوليو، فأيقنتُ أنهما قرينان ظاهران لطريق البابواب الخفي. هاجس مشاكس أسرّ لي بأن هناك جغرافيا أصلية للعالم، مخفية في بقاع الغفلة، وتتخفي خلف آلاف الصور والأقنعة المنتشرة في شتى أرجاء المعمورة.

تذكر انك حملت رواية أطلس الخفاء حصريا من موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل وكتب في خانة البحث مكتبة بيت الحصريات.

حصدت بأن هذه الجغرافيا تُمَثِّل العالم الأول الذي وطأتها أقدام آدم وحواء بمجرد نفيهما إلى الأرض، أو ربما تُمَثِّل الجنة نفسها، وتتجلى شذرات منها للمختارين، مثل نثار من ذاكرة جمعية موروثية. حمدت الله وشكرت فضله لأنني أحد هؤلاء المختارين.

شجرة صمغ عند مفترق طرق

الصباح لا يزال ينبجج، لم تلعن الشمس عن حضورها بعد، لكنّ العتمة انزاحت تاركةً لضوء السحر الملتبس بالغيب مساحة يتمركز فيها. بلّ الندى يُرَبِّب كل شيء، والعالم صممتُ موحشٌ، أما الطريق فطويل، وإن لم يكن شاقاً.

شيء ما أشعرنني بالخفة، كأن جسدي بلا وزن، أو كأن الجاذبية لا تُقَيِّده، تكفل له فقط عدم الطفو، لكنها لا تشده إلى الأرض.

رويداً رويداً راح المشهد يميل إلى النور بشكل لا يعكّر صفوه إلا شبورة خفيفة وبخار ماء ينبعث من فمي حين أفتحه.

من بعيد خايلتني انحناء الجسر الترابي الذي أسير فوقه ظننت أن الطريق ينتهي عندها، كما لو أنها نقطة حاسمة في آخر سطر ما بالاقتراب تجلّت أمامي - في منتصف المنحنى - شجرة صمغ عربي بجذع خشن وخضرة قاسية، والأهم بصمغ ملتصق بها، يشبه دموعاً تجحّرت في مآقيها على الرغم من إرادتها الساعية للسّيلان بروية فوجئت بأن الجسر الترابي يكمل مساره بعد هذه الانحناءة ليس ثمة نهاية ما إلى اليسار جُزِف تبين منه شواشي الخفاء والغاب البلدي، وإلى اليمين صف من أشجار كافور وجازورينا، تخف كثافتها فقط عند المنحنى تاركة الفضاء لشجرة الصمغ العربي التي يجاورها منزلٌ بالغ الانحدار، يقود إلى طريق يقع في مستوى منخفض، ويكوّن مع الجسر ضلعي مثلث - أكثر انخفاصاً - مزروعاً بنباتات لا يمكن التكهن بأنواعها بسهولة.

حرتُ في أي الطريقين أسير، وحين عجزتُ عن الاختيار، اقتربتُ من شجرة الصمغ أتأملها. لاحظتُ أن بعض القطرات المتجمدة أكثر شفافية من الأخريات. دققْتُ في واحدة منها فاستحالتُ مرآة صقيلة عكستُ رأسن نمر بدلاً من وجهي. أفز عني أمحاني وحلول النمر محلي. لحظتها فقط أدركتُ أنني أختبر واحدة من إشراقاتي، وتذكرتُ أن فضاء تجربتي الروحية هذه مشابه جداً للطريق الواصل بين قريتي النائية والقرى المجاورة لها. أدركتُ رأسي صوب المثلث الممتد على مدى النظر، فخيل إليّ أنه مجرد بقعة ملونة بالأخضر، في خريطة مفروشة أمامي.

استولى النمر على روعي بلا أمل في الخلاص.

السير على كسر الزجاج

أخطو في طريق منحدر، فيخطر لي أن جغرافيا تجلياتي كلها منحدر، كآتي أحت خطاي خلالها نحو هاوية ما. أعي أنني منفصل عن واقعي المعتاد، لكنني غائب عن ذاتي وهويتي. لا أعرف من أكون، ولا تبين لي لمحة واحدة من حياتي الواقعية. ربما لانشغالي بمحاولة تقادي أن يجرحني الطريق المفروش بزجاج مكسور مختلف الأشكال والأحجام، أدوسه كالمنوم راجياً ألا يخرق قدمي.

في سريرتي، أعلم أن دربي موصل إلى نهرٍ أقرب إلى جدول مائي تنعكس عليه خضرة الأشجار والنباتات المزروعة على ضفتيه. أدرك أيضاً، أنني لن أصل إلى هذا النهر أبداً، أو ربما لن أبلغه هذه المرة على الأقل.

لا أرفع رأسي كي أتأمل السماء، لا أعرف حتى إن كان ثمة سماء من الأصل أم لا! ولا ألقى ولو نظرة عابرة نحو اليمين أو اليسار، بصري مشدود صوب دربي الجارح الذي ازداد انحداره.

في نقطة ما، أجد أمني تنتظرنني، فأتعرف على نفسي. تتحني على ركبتي، وتشرع في إخراج شظايا منها وسط دهشتي من كيفية وصول الزجاج المكسور إلى ركبتي في وقت لم يجرح فيه قدمي. في أكثر من موضع على ساقي، أبصر قطرات دم، لكنني لا أشعر بالألم، فقط بخدر غريب. خلف أمني تنكفى أختي ليلي، بجلباب أزرق، على جمع شيء ما من الأرض. ليست مشغولة بالتقاط قطع الزجاج، بل أحجار لا أستبينها في البداية، قبل أن أدرك أنها حبات عقد كهربان انفرط منها، وتحاول لملمته من جديد، على أمل أن يعود إلى سيرته الأولى أجهد ذهني محاولاً تذكر هل امتلكت شقيقتي يوماً مثل هذا العقد أم لا، فلا أفجح، ثم يتلاشى كل شيء.

* * * * *

2

لا يعرف مراد ماذا عليه أن يفعل! شهور قليلة ويتقاعد، ولا مجال لتأجيل تقاعده يفكر في طريقة تتيج له مواصلة عمله، فلا يسعفه خياله أو حيلته سوف يتقدم بطلب إلى إدارة المؤسسة التي يعمل بها من أجل التمديد له لعامٍ إضافي، على الرغم من يقينه بأن طلبه سيُقابل بالرفض. يضيق نفسه ما إن يتخيل طوفاناً من أيام تالية لا عمل ينتظره فيها: عطلة ممتدة.

يا للرب!

تنقل الفكرة قلبه، فيحاول تخيل أعمال محتملة يمكنه الانشغال بها بعد تقاعده، لكن هذا لا يحسن مزاجه. ماذا يمكنه أن يعمل؟ بائع في صيدلية؟ في سنه هذه! يفتح مكتبة لبيع الأدوات المكتبية؟ تدوخه الاحتمالات، ولا يرضيه أيُّ منها. انتبه إلى أنه لا يرغب في أي عمل والسلام، إنما عمله الذي اعتاد عليه طيلة حياته. قد يراه الآخرون مملاً يورث الخمول والرتابة، لكنه وحده يدرك أنه جوهره ثمينة بين أعمال أشبه بالحصى والزلط.

لا أحد يدرك أهمية الأرشيف مثله صحيح أنه مظلوم فيه، وتجاوزته الدور في الترقية أكثر من مرة، غير أن كل هذا لا يهيمه يكفي أن يظل يتردد طوال أيام العمل على مكتبه، ثم ماذا كان سيفرق معه أن يصبح رئيس قسم الأرشيف؟!

لن يضيف هذا إليه شيئاً خاصة أن الترتيبات، حيث يعمل، تكون بدون أعباء مالية على المؤسسة. الراتب واحد تقريباً. مثله مثل مديره.

حتى هذه اللحظة، يروقه تجهيز الملفات بنفسه. يقص الأخبار والتقارير والحوارات المتعلقة بموضوع بعينه ويؤرشفها في ملفات ورقية. يتابعه زملاؤه بدهشة وفضول معظمهم بات يعتمد على الأرشيف الإلكتروني، فيما ظل هو مخلصاً لما اعتاده طوال سنوات عمله الوظيفي تركوا له هذا الجانب، وانشغلوا هم بطرق الأرشيف الأحدث، مكتفين بمداعبته بخصوص رفضه القاطع لشراء هاتف محمول، أو جهاز كمبيوتر هو بالنسبة لهم خارج الزمن.

لطالما تندرأ، وراء ظهره، بأنه من «أهل الكهف»، لكن أمامه اشتكوا من التوتر الذي تسببه لهم الأجهزة الحديثة. وهو لم يكن يعيرهم كبير اهتمام. في سريره تمنى لو تشق الأرض وتبتلعهم مرة واحدة وإلى الأبد، كي يخلو له الجو في أرشيفه الحبيب.

مع الوقت، طوّر مهارة إلغاء وجود الآخرين متى أراد. يكون بينهم لا يزال، لكنه ينجح في غلق حواسه في وجوههم. لا يكاد يسمعهم حتى لو أمعنوا في الضجيج. يغرق في ما يفعل، ويستفيق فقط إن لكزه أحدهم كي ينتبه له، ويرد على سؤال تكرر أكثر من مرة حتى ظن موجهه أنه يخاطب شخصاً أصم أبكم تريحه هذه الطريقة معظم الوقت، لكنها تجلب له أحياناً نقمة مديره، إذا حدث وقولت طلباته بالصمت، لا لأن مراد يعتمد تجاهله، إنما فقط لأنه لم يلاحظ دخول الرجل إلى المكتب الذي يجمع مروضيه معاً، أو «السويقة» كما اعتاد أن يطلق عليها حين يكون ناقماً عليهم لسبب أو لآخر.

يؤجل مراد التفكير في المستقبل المتوثب للانقراض عليه، وينشغل في حاضره. كان أسبوعاً منهوئاً. لم يعد قادراً على السير إلى العمل يومياً كما كان يحلو له أن يفعل في الماضي، صار يستقل مترو الأنفاق؛ أكثر شيء يكرهه في العالم ينظر له كوسيلة تعذيب لا مواصلات لا يعرف من السادي الذي فكر، لأول مرة، في نقل الناس في أنفاق تحت الأرض، لكنه مقتنع تماماً باستحقاقه للشنق، حتى لو كانت نواياه طيبة.

إذا أخبره أحدهم أنه يعاني من صداع، سوف ينصحه المدير بأن يتغذى جيداً، وإذا عرف أن زميلاً قد عثر في شيء ما وانكسرت ساقه، سيؤكد بيقين أن هذا الزميل كان جائعاً بالتأكد، لأنه لو اهتم بتناول وجبات مُشبعة لما انكسرت ساقه.

يأكل الرجل كثيراً، يُحضّر معه من البيت وجبات أعدتها له زوجته خصيصاً، إضافة إلى بضع ثمرات فاكهة وزجاجة صغيرة من الحليب. لا يكاد يراه أحد بين نوبات غضبه سوى وهو يمضغ شيئاً ما، قطعة لحم، تفاحة، موزة، أو علكة لا تفارق فمه حين يتوقف عن الأكل. يقول إنها مفيدة للأنثيين، ولعضلات الوجه. يتناول يومياً حبة «أسبوسيد» أطفال لضمان سيولة الدم ومنع تجلطه.

أما مراد، فيقاطع الأدوية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، يكتفي بالأعشاب ووصفات الطب البديل، ويذهب إلى العمل بعد تناول إفطاره المعتاد: طعمية ساخنة بالعيش الفينو وقهوة تركي سادة، ووقت الغداء يتوقف عن انكبابه على العمل لدقائق يقتات فيها على رغيف خبز بلدي محمص مع قطعة جبن برامبلي وخياره وثمره طماطم. يأكل كالمجبر على تجرُّع دواء مر. عقله شارد، وعينه تائهتان كأنما يفكر في وسيلة لإنقاذ العالم.

في البيت يستمتع بالأكل بدرجة ما، لكن في المكتب يكره كل ما يبغده عن مهامه ولو لدقائق. يؤدي عمله بجدية من يدرك أن مصير البشرية معلَّق به وحده.

يفكر في هذا، فيما يجلس إلى الطاولة في بيته، فينذكر أن اليوم يوم جمعة، ذلك الزائر الأسبوعي الثقيل على قلبه، لأنه يذكره بأن سنواته التالية ستكون سلسلة لانتهائية من أيام الجُمع.

تذكر انك حملت رواية أطلس الخفاء حصرياً من موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب في خانة البحث مكتبة بيت الحصريات .

يسمح بأصابعه غباراً وهمياً عن السطح المصقول للوح الزجاجي الموضوع فوق الطاولة، وينكفي على دفتره الرمادي بادئاً التدوين.

بيتٌ مغمورٌ بالماء

فوجئتُ بنفسي واقفاً قبالة بيت من طابق واحد مبني بالطوب اللين ومطلي بجير أخضر باهت، على واجهته رُسمتُ باخرة حجاج ونخلتان وقافلة جمال يقودها حادٍ مُعَمَّم كان الباب موارباً فدخلتُ منه كهبةً هواء طفتُ بالغرفة إلا واحدة، لأنها مغلقة من الداخل، وتنبعث منها أنوار وأصوات ذكر وإنشاد ديني بدتُ الابتهالات والأذكار مألوفة، ومع هذا لم أستبن فحوها كانت كأنما تُتلى بلغة عرفتها في الماضي ثم محتها ذاكرتي

ثم أدركتُ أنها ليست أصواتاً فعلية، فهذه التجربة مثل معظم تجلياتي الأخرى، تدور في فضاء انفتحت فيه فكرة الصوت، أيقنتُ في سريرتي أن الابتهالات المنبعثة من الداخل رَجُحٌ صامت تستعيده ذاكرتي العتيقة من أصوات طفولتي المبكرة، لا بل من ذكريات الجنين الذي كنته.

أنا متأكد من أنني اعتدتُ سماع هذه الأصوات والإيقاعات، فيما أصبح في عتمة الرحم، وها هي تجلياتي مشكورة تعينني إلى أيام هناءتي غير الواعية.

من نافذة إحدى الغرف لمحتُ النيل محاطاً من ضفتيه بأشجار صفصاف ونخيل، وعند منحني ما فيه، ثمة أرض ينمو فيها الغاب والخلفاء بغزارة. لاح النهر هادئاً في البدء، ثم استحال هدير هيجاناً، واستحال الهيجان فيضاً لا يبقي ولا يذر.

البيت في مستوى أعلى بكثير من مستوى النهر، كأنما يطل عليه من فوق تل، ومع هذا غمرته المياه بالكامل، وظللتُ أنا بداخله غائصاً في قاع عَمِّ العالم في عيني. لم تصادفني مشكلة في التنفس، فقط إعتام مؤقت تلاه ضوءٌ باهر، انفتحت باب الغرفة المغلقة وفاضت أنوارها على البيت الغارق في مياه الفيضان. من داخل الغرفة خرجتُ أمي بملابس بيضاء من الرأس حتى أخصم القدمين، وتبعتها أختي لا يستر جسدها سوى غلالة بلون فاتح، فيما شعرها الأسود الطويل يطفو خلفها ممتدّاً كبساط حريري بالغ الذكوة.

لم تنتبه لوجودي، فاتجهتُ نحو الغرفة، حيث وجدتُ جدتي خديجة تغسل أنية وأطباقاً فيما تغني بصوت حزين وتمسح دموعها. استكنتُ بجوارها منتظراً أن تنتبه لي وتأخذني في حضنها. على الحائط المواجه، ارتسم وجه محبوبتي وردة بعينيهما النجلاوين وشفتيهما المكتنزتين المزمومتين بغضب، فشرعتُ بأني غير جدير بالاحتضان.

امرأة على الطريق

كنت ممدداً على ظهري في فضاء لا شيء فيه سوى عشب أخضر. من بعيد تحوطه جبال راسخة، والسماء تغمرها سحبٌ أشبه بورود ضخمة تتدرج ألوانها بين أطياف الأبيض والرمادي. أغمضتُ عيني، فترأى لي طريق ترابي لا نهاية له، تنتشعب منه وتتقاطع معه طرق عديدة على الطريق تسير امرأة عجوز بملابس سوداء وخطوات ثقيلة تتعب بعد فترة، فتجلس فوق صخرة على جانب الطريق كي ترتاح قليلاً، قبل أن تعاود السير من جديد عند مفترق الطرق تقف حائرة، ثم تختار أحدها كيفما اتفق وتواصل مسيرتها.

تعرَّفْتُ في المرأة على جدتي لأمي، الشيخة خديجة كما اعتاد أهل القرية أن ينادوها، لكنها هنا لا تتجلى لي في سنوات عزها وقوتها، بل في سنواتها الأخيرة حين تاه عقلها وأدمنتُ السير في الطرقات، فلا يعرف أحد إلى أين تذهب أو لماذا! يمر بها أحد معارفها ويسألها عن وجهتها، فنظرتُ له كأنها لا تعرفه، وتستمّر في خطوها، في تلك الفترة كانت بالكاد تتكلم أو ترد على أحد، وإذا حدث وتكلمتُ لا تكوّن جملاً كاملة أو مفهومة، بل نثار من كلمات لا رابط بينها.

توقف الناس وقتذاك عن مناداتها بلقب الشيخة، بالنسبة لهم كفتت عن أن تكون مُحِقِظَة القرآن مرهوبة الجانب، منذ انغمست في طقوس لا قدرة لهم على فهمها أو تقبلها.

تعود مع حلول المساء منهكة، تتكوّم نائمة في أقرب ركن يصادفها ما إن تدخل البيت. في آخر سنتين من عمرها، عجزت تمامًا عن الحركة، وتقلص جسدها الفارع إلى كومة جلد على عظم. اعتادت أن تطلب من أمي حملها إلى مدخل البيت مع ترك الباب مُوَارَبًا. تجلس كومة العظام التي صارت إياها فوق بساط فرور الخروف، الذي اعتادت الجلوس فوقه قديمًا وهي تحفظ الأطفال القرآن في كُتَابها، وتترك عينيها لالتهام الشارع المترائي لها من فتحة الباب. تظل نظرتها معلقة به. لم تكن تتابع الرائح والغادي أمامها، بل تتأمل الطريق ذاته وعيناها مغمورتان بالحسرة.

في إشراقتي، كانت جدتي قوية لا تزال، غير أن الطرق التي تسير عليها لم تشبه أي طريق أعرفه بدت غريبة ومألوفة في آنٍ لاحت لانتهائية في تمددها وتشعباتها، ومع هذا تمنح رائحتها إحساسًا بأن بإمكانه القبض عليها وطبها ثم حملها مطوية في راحة يده.

* * * * *

3

يجلس مراد في العمل منكبًا على ملف أمامه. يُخَيِّلُ له أن الملفات تتراكم على مكتبه، كأنما من تلقاء نفسها، ثم يكتشف أن المسألة لا علاقة لها بالتخييل. ثلاثة من زملائه تركوا له بالفعل المهام الموكلة لهم كي ينجزها هو.

«كل سنة وأنت طيب. أول يوم رمضان، وزى ما أنت عارف لازم نروّج بدري، عشان معزومين في بيت العيلة».

يقول له الواحد بعد الآخر، فيعرف أن المعنى المضمّر لكلامهم أنه مقطوع من شجرة؛ لا أحد ينتظره على وجبة الإفطار اليوم ولا هو ينتظر أحدًا يهز رأسه، متفهمًا دون أن يضايقه هذا على العكس، يسعده أن المكتب سيخلو له، وينتظر أن يغادر الزميل الرابع، كي يصبح وحده تمامًا، سابقًا في وحدته فرحًا بها غير أن هذا الزميل لا يُصدر ما قد يوحي باقتراب رحيله. يرفع رأسه، من وقتٍ لآخر، وينظر إلى مراد كأنه يوشك على قول شيء ما، سرعان ما يتراجع عنه.

في النهاية يسأل: «هتفطر مع مين النهارده؟ لو هتكون لوحدي، ياريت تشرفني بقبول دعوتي على الفطار. المدام والأولاد هيفرحوا بالتعرف عليك، أنا دايماً بأحكي لهم عنك».

يشعر مراد بأن هناك من صبَّ عليه دورق ماء مثلج يخجله أن يشفق الآخرون عليه، ويضايقه أن الحواجز التي بيرع في إظهارها في وجوههم ليست قوية بما يكفي لإبعاده عن مرمى تफलهم ولफलهم على حد سواء. تسعفه قريحته بقول إنه مدعو للإفطار وقضاء الليلة كلها في بيت ابن عمِّ له يبدو مقبلاً، لكنه لا يثق في هذا فيضيف أن ابن العم هذا يسكن في بيتٍ فخم في مصر الجديدة يخترع حكايات وطرائف وقعت أثناء زيارات سابقة لهذا البيت العامر. لا يؤنبه ضميره على هذه الكذبة، فهي لن تضر أحدًا، فقط سنتقده هو من موقف محرج.

يهز الزميل رأسه مقتنعًا دون أن يستوقفه انسياق مراد في الاستطرد على غير عادته. فيما يفكر الأخير في ابن عمه الوحيد؛ ذلك الذي يعيش في شارع خالد بن الوليد في الإسكندرية ولم يره منذ فترة طويلة.

«أراح واستراح»

يقول في سره، وقد غمره الارتياح لأن القدر خلَّصه من الوصايا والنصائح التي لم يكن ابن عمه يتوقف عن إسداؤها له، كأنه امتلاك حكمة سليمان ويسخو بها على المحتاجين تخلَّص أيضًا من الزيارات المتباعدة إلى الإسكندرية، وهي زيارات لم يكن يعجبه فيها سوى الساعات التي يقضيها في رحلة القطار محدقًا - عبر زجاج النافذة - في المناظر سريعة العبور بالخارج، وهائمًا في ملكوت آخر، لا ينجح أي شيء في إخراجه منه أو إفاقة على ثمرات الركاب الآخرين.

يستعيد عبارتين من كتاب القراءة في الصف الثاني الابتدائي: «الحقول تجري وتجري» و«الأشجار تجري وتجري». لا تحضره تفاصيل الدرس المنتمي لسنواته الأولى في المدرسة، يتذكر فقط أنه كان عن طفلين عاندين إلى بيتهما في سيارة الخال بعد أن قضيا عطلة صيفية عنده في القرية طفلان تخلب سرعة الحركة لبيهما ويخيل إليهما أن الحقول والأشجار هي التي تجري وليس العربية لطالما افتتن في طفولته البعيدة بالأمر نفسه، باستسلامه للفرجة من نافذة عربة مسرعة غير قادر على تمييز أي الأشياء ثابت وأيها يتحرك.

لطالما تمثلت متعته الثانية، خلال تلك المشاوير الاضطرارية، في ساعة أو ساعتين اعتاد اختلاسهما للجلوس وحده في مواجهة البحر. كان يختار ساعة متأخرة من الليل، ويجلس في أقرب بقعة متاحة من المتوسط، مستمتعًا بالرداذا المتناثر عليه من الموج الصاخب في تكسره على الصخور. يراقب انعكاس أضواء المدينة على المياه، ويتأمل سفناً وبواخر عابرة في البعيد، لا يعرف من أين تأتي ولا إلى أين تذهب، فيشعر بالامتنان لأنه شاهد على مرورها. يقنع نفسه بأن هذه اللحظة سحرية، دون أن يفهم لماذا هي كذلك يحس فقط بهذا مؤكد أن على متن إحدى هذه السفن العابرة شخصًا ذا شأن؛ أينشتين جديد مثلاً أو إنسان سوف يلعب دورًا ولو بسيطًا في إخراج العالم من بؤسه حين يبلغ تلك النقطة يروح تحت ثقل الاسى.

لكِنَّ النسيم الليلي المنعش ورذاذ الماء المالح يذكرانه بكل التَّعم المتوارية خلف تلال الضجر والألم يخطر له أنه محروم من كثير ممَّا في هذا العالم الشاسع، لم يخطِّ سوى في مساحة لا تُذكر منه، ولم يختبر إلاَّ أضالَّ التجارب والخبرات، ثم ينفض هذا الخاطر بعيدًا مذكِّرًا نفسه بنعمة تجلياته وما يتراءى له خلالها من استبصارات لا يعرف عنها معظم الناس شيئًا أول مرة سأل نفسه فيها إن كان هناك غيره من المحظوظين بهذه الهبة، كان في حضرة المتوسط ذات ليلة صاحبة الأمواج كأن البحر الأهم يرغب في إغراق اليابسة بأسرها، لكنه يفقد هذه الرغبة في اللحظة الأخيرة قبل قرار الإغراق. بدا لمراد كأن صوتًا بداخله يسأله: مَنْ منح المتوسط لقب البحر الأهم؟ فاغتاظ من حماقة السؤال بالنسبة له، هذه حقيقة علمية متفق عليها من الجميع، ثم فليذهب الجميع إلى الجحيم في التو واللحظة هو يراه مركز العالم وليس فقط أهم بحاره ويؤمن بأن الإسكندرية، مدينة العالم؛ العالم المعروف للعوام على الأقل. ومع هذا لم يكن يحب زيارتها كثيرًا، ويجيء إليها فقط ردًّا على زيارات ابن عمه له. عرف لاحقًا أن الأخير كان مغرمًا بصاحبة البيت الذي يسكن هو فيه، ولشد ما فرح حين انتهت قصة الحب بينهما، ليس عن تعاطف مع زوجة ابن عمه، فلربما كان تخلصها من زوجٍ مماثلٍ أفضل ما قد يحدث لها، إنما لأن زوج ابن العم من صاحبة البيت كان سيترتب عليه في الغالب إقامته في البيت نفسه، ما كان سيهدد حتمًا عزلة مراد.

أفاق من أفكاره وذكرياته على صوت زميل المكتب وهو يودعه قائلاً إن موعد الإفطار اقترب، وعليه أن يغادر هو الآخر قبل ازدهام الشوارع هز مراد رأسه موافقًا وإن لم تبدر منه أي علامة على تجهيز نفسه للانصراف، فلوح له زميله وخرج متمنيًا له صومًا مقبولًا وإفطارًا شهيقًا.

ظلم مراد في مكانه لساعة إضافية، لأنه كان قد عقد العزم على أن يتمرد على عادة مستقرة لديه، وأن يتناول فطور أول أيام رمضان في مطعم. رَينَ الفكرة لنفسه منذ الصباح، متجاهلاً رهابه من الأكل في المطاعم وحده ووضَّع نفسه تحت رحمة نظرات الآخرين المتفرسة فيه والمتسائلة، ربما، عن سبب عدم وجود رفة معه. في أعماقه، تستقر قاعدة راسخة مفادها أنه لا يصح أن يأكل الإنسان وحيدًا في مطعم. لا يعرف متى بالضبط ترسخ هذا الاعتقاد بداخله، لكنه ترسخ والسلام. هذا في ما يخص الأيام العادية، فما بالنا حين يتعلق الأمر بالمناسبات المهمة كالأعياد وأول يوم في رمضان؟

«لا، لن أرتكب هذه حماقة!»

يردد مراد، في سره، وقد حسم أمره. لن يحول نفسه إلى مادة للفُرجة والفضول. ثم يفكر في أن المطاعم ستكون شبه خالية، وقت الإفطار اليوم، لأن الجميع تقريبًا يحتفل ببداية الشهر الكريم مع الأهل والأحباب، وبدلًا من أن يطمئن هذا إلى عدم وجود متفرجين محتملين عليه وقت تناول إفطاره، يزيد من توتره. ماذا لو فضَّل البعض الاحتفال بالمناسبة مع أصدقائهم في المطعم الذي سيذهب هو إليه؟! يبدو احتمالًا ضئيلاً، لكنه يقرر عدم الخضوع لفوضى الاحتمالات وعشوائيتها.

في النهاية، يقرر مراد التوجه إلى بيته، في وقت خلت الشوارع فيه من المارة، لاقتراب موعد أذان المغرب بمجرد فتح باب شقته وإغلاقه خلفه، يدوي صوت مدفع الإفطار، من تلفزيون في الشقة المجاورة يضع المفاتيح على طاولة السُّفرة، ويدخل إلى المطبخ، لا يجد فيه ما يصلح للأكل، ولا يعرف ماذا يمكنه أن يطهو في هذا الوقت الضيق. يرتفع صوت الأذان من المسجد القريب. يتناول زجاجة مياه باردة من التلاجة، ويرتشف منها رشفة يكسر بها صيامه، يتبعها بتمرة، ويجلس لدقائق لالتقاط أنفاسه، ثم يقوم لطهي كشري صعيدي، كما اعتادت أمه أن تطلق عليه. يضع كوبًا من الأرز مع كوب من العدس الأصفر في إناء ويضيف إليهما الزيت والملح والماء، ويرفع الإناء على النار. يسلق بيضتين، ويحمد الله أن لديه مخال ليمون. كانت أمه تأكل الكشري الصعيدي مع البيض المسلوق والسلطة الخضراء والليمون المخال.

تذكر أنك حملت رواية أطلس الخفاء حصريا من موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل وكتب في خانة البحث مكتبة بيت الحصريات .

ينتهي من الأكل، ويشرب قهوته السادة. يشعر بثقلٍ في رأسه، لكنه يقاوم رغبته في النوم، كي لا يختل روتينه اليومي. يتذكر دفتر تجلياته، فيذهب لإحضاره من غرفة النوم. يقرأ فيه لبعض الوقت، ثم يبدأ في إضافة تدوينات جديدة إلى تلك الموجودة فيه.

نافورة مضيئة

العالم مظلم، لكنها ظلمة أليفة، يتخللها بصيص من ضوء طبيعي غامض المصدر، كأن ثمة بدرًا غير مرئي، ومع هذا يبسط نوره الخافت على كل شيء، أو كأن هناك عددًا لا يُحصَى من شموع عطرية تنتثر ضوءها الخجول على الوجود رجحت، وأنا أسير بجوار رقيقة لا أعرفها، فرضية الشموع العطرية هذه لأن الجو معقَّب برائحة لا مثيل لحلاوتها، وإن لم يسعني تحديد أي رائحة هي بالضبط: أهي عبير ياسمين؟ أم شذا زهر ليمون؟ أم مزيج من الاثنين؟

أزحتُ الانشغال بكُّنه الرائحة بعيدًا عن ذهني كي أركز في تأمل جغرافيا مسرحي هذا. الطريق، الذي أخطو فيه بصحبة رفيقتي، ترابي غير مستوٍ، على يمينه حقول منخفضة يليها نهرٌ يتهدى متعرجًا في مساره صوب الشمال، وعلى يساره هاوية طولية ممتدة بطول الطريق تفصل بينه وبين طريق آخر موازٍ له.

أثقتُ أن الطريق الآخر هو الذي يقود إلى مقصدنا، وأنا بسيرتنا في دربنا هذا، لن نصل إلى أي مكان مأهول. أحاول شرح الأمر لرفيقتي، لكنها لا تنتبه لي، تبدو كأنها لا تسمعي من الأساس، فأدرك أن كلامي ينساب بصمتٍ بداخلي، ولا يتشكّل في صورة صوتٍ مسموعٍ لأحدٍ سواي.

أواصل المشي محاولاً الاستمتاع بالنسيم المنعش والظلمة غير التامة، فأجد نفسي موزعاً بين النظر بحسرة إلى الطريق الصحيح، في الجهة الأخرى من الهاوية، وبين تأمل امتداد الصراط الذي أختير لي ولرفيقتي. عند نقطة محددة، نلتقي برفيق ثالث، لا أعرفه أيضاً، لكنني أحس بأن ثمة ما يجمعني به. أجد نفسي في محاولة أن أوضِّح للرفيق الجديد أننا جميعاً في المكان الخطأ، وأن علينا البحث عن جسر نعبّر عليه الهاوية كي نصل إلى الطريق الموازي لها، إن كنا نرغب في بلوغ وجهتنا.

لم أعرف إن كان كلامي قد خرج إلى العلن أم لا! ما حدث أن رفيقنا الطارئ لم يرد عليّ، فقط أشار إلينا أن نتبعه يميناً. نظرت صوب الحقول المنخفضة المجاورة للنهر، ولم أفهم كيف ستهبط إليها! اكتشفت وجود طبقة أقرب بين دربنا وبين الحقول، يقود إليها ممر مائل. سرت ورفيقتي خلف الرجل كالمسرّنين، فرأينا نافورة مضيئة من حجر الصوّان يتدفق الماء منها إلى بحيرة رقراقة تتعكس على سطحها أضواء النافورة. بدا المنظر خلابة لسبب غير مفهوم لي. دون ذرة من تردد، خاضت رفيقتي في المياه التي وصلت إلى خصرها. أردت أن أحذو حذوها، لكنني نظرت إلى حذائي وملابسي، غير قادر على اتخاذ قرار نهائي. حدست فقط، بأن بمجرد نزولي إلى البحيرة لن تعود حياتي كما كانت.

أرض الحصاد

كنت أجري كأني في مهمة تتوقف حياتي على تنفيذها لم أشعر بالتعب أو الضغط، على العكس داخلني ارتياح وسرور ينبعان من حُفّة لم يسبق لي أن أحسست بمثلها قبلاً كدت أرى نفسي ريشة بيضاء يحرّكها الهواء، ناقلاً إياها من موضع لآخر، دون حاجة منها لبذل أي جهد.

انتهى بي الدرب عند بقعة حدستُ بأنها حافة العالم، حيث أليفُ نفسي مُطلاً على حقلٍ شاسع يغص بالحاصدين. كانوا يحصدون نباتاً يشبه القمح أو الأرز، لكنني كنتُ واثقاً من أنه ليس أيّاً منهما. يمكنني تمييز الاثنين، ولو على بعد أميال. لشدّ ما أرهقتني رائحة غبار القمح المنتشرة في هواء قرّيتي خلال الموسم الحار للحصاد والذّرس، تلك الرائحة التي أورتنتي حساسية مزمنة في الصدر أمّا الأرز، فلطالما خُلف في نفسي جرّحاً لا سبيل إلى شفائه فإن نسيبتُ لن أنسى أوقاتاً عصيبة قضيتها في حراسة المحصول المفضّل لعائلتي من غزو العصافير، مثلما لن أنسى خوضي في مياه أشبه بالمستنقعات تمتلئ بها حقول الأرز معظم فترة زراعتها.

لاحظت أن الحاصدين يودون مهمتهم بهمة، ومع هذا لا يبدو لي أنهم يحققون تقدماً يُذكر. تتكوم أكوام من النبات الجاف بلونه الأصفر الذهبي خلفهم، وتتسع المساحة غير المحصودة أمامهم. خطر لي أن هذا الحقل، المترامي على مدد بصري، أرضٌ للحصاد فقط؛ موطن للنهائيات غير المُنجزة، ولم يتدق قط لذة البدايات الموسومة بالأمل والرجاء.

تعاطفتُ مع المنكفئين على إنهاء عملهم، غير ملتفتين إلى سرديته، ووددت لو أتمكن من معاونتهم، على الرغم من اندثار معظم ما يخص الزراعة والحصاد من ذاكرتي منذ أمد طويل. أراحتني إدراكي أن هذا المشهد تحديداً مجرد مادة لفرجتي، دوري أن أتخلص عليه، وأخمن أبعاده وخفاياه، وحتى لو عرفت، بالقدر المخال الذي يتجه الحسد من معرفة السر الكامن خلف هؤلاء الحاصدين ومهمتهم العبيثة، فلن يفيدني هذا في شيء، والأهم أنه لن يفيد قوم الحصاد هؤلاء، فصيرهم - كما يتراءى لي - محدد سلفاً.

حفر البحر

رايتني في عالم بلا نهاية؛ عالم مائي لا أثر فيه لليابسة ولا للبشر أو النباتات. لا طيور ولا حيوانات ولا أحجار، باستثناء زلط ملون، تراءى لي في قاع الماء الرائق. لم أندش حين خطوت فوق الماء كما لو أنه أرض بديلة؛ بلا رجفة أو شك أو خوف من غرقٍ محتمل لم يكن في ذاكرتي أي شيء يخص الغرق، كأنه لم يوجد قط، ولن يُخلق مستقبلاً كان ليروقتي - في حال عرفتُ في تلك اللحظة مفهوم الغرق - وجود عالم لا مكان للغرق فيه. سرت على الماء كيفما اتفق، ونظرت للأفق محاولاً استكناه ما يخبئه لي. بلا مقدمات، انحسر الماء عن دائرة، في وسط المحيط الممتد. لم تتكشف عن انحساره أرض مستوية، بل ما يشبه الحفرة اقتربت كي أنظر إلى داخلها من مكاني بالأعلى، فلم أجد فيها أثراً للمياه، ولا لأي سائل آخر، وأبصرت دَرَجاً حلزونياً، لم أستطع مقاومة إغراء وضع قدمي على درجته الأعلى والنزول إلى حيث لا أعرف بالأسفل، رأيت الكون في طفولته يُجهز ويُعدّ بيد الإنسان: هذا يحفر البحر، وهذه تثبت القمر بموقعه في السماء، وذاك يبذر البذور منتظراً بزوغها من الأرض؛ أرض سُويّت ورُتبت بمزاج.

في ما يشبه إشرافة فرعية داخل إشرقتي الأصلية، فطنت إلى أن هذا العالم البكر لم يعرف البحار قبلاً، على الرغم من أنه كان في باطن بحر يعلوه كما لو كان سقفاً له وأدركت أن البشر يتكرونها بأنفسهم، كما يبتكرون بقية مكونات عالمهم في لحظة الإدراك تلك غمرني معنى الغرق تمرغث فيه وامتلاّت به حرث: هل أحذرهم مما هم مقبلون عليه؟ هل أنصحهم بعدم حفر البحر؟ أم أتركهم لاختبار لذة الاكتشاف بأنفسهم؟ انحزّت إلى الصمت في النهاية، إذ أدرك أكثر من غيري درجة إغواء البحر، وأعلم أن عالماً بلا بحار أو أنهار لا يستحق عناء العيش فيه.

يجلس مراد على الفتية المواجه لنافذة غرفة المعيشة محدقاً في زهور الجهنمية المتمايلة بفعل النسيم. يحسد الأغصان المتسلقة على خفتها وقدرتها على أن تسلك طريقها للأعلى متجاوزة أي عقبات محتملة. السماء غائمة في الخارج، ولا أثر للشمس. يقبض هذا قلبه للحظات، لكنه سرعان ما يقنع نفسه بأن اللون البنفسجي المتألق لزهور الجهنمية شمس، بل شمس بديلة.

ينتعش بلا مقدمات، ينهض ويذرع المكان جيئة وذهاباً، كأنما يُقَلِّب فكرة لامعة على جميع وجوهها، مع أن ذهنه فارغ كفواد أم موسى يتوقف وقد سيطر ثقلٌ هائلٌ عليه لا يدرك من أي ثغرة نفذ إليه كل هذا الغم! يتراوح مزاجه بين السعادة الغامرة غير المبررة وبين اليأس المفاجئ كل ساعة تقريباً، وربما كل دقيقة على الرغم من أنه يسكن في الدور الخامس، تصله أصوات الشارع والمقهى أسفل البناية المجاورة بلا توقف، وتُغَيِّص هدوءه إن لم يكن محتاطاً لها بإغلاق النوافذ وإسدال الستائر كما هي عادته، التي يختار من وقت لآخر التمرد عليها، قبل أن يرتد إليها صاغراً، حين تقتحم ضجة الخارج وشروبه مخبأه. نعم، صار ينظر إلى الشقة التي عاش فيها لعقود، وكانت بيتاً له في ما مضى، باعتبارها مخبأً، لا أكثر ولا أقل.

يذكره الضجيج بجبريل؛ الرجل الصاحب الذي تعرف عليه في خضم دوامة ٢٠١١، واعتاد أن يراه كلما جلس إلى المقهى الشعبي القريب من عمله. كان جبريل هذا يرى في كل شيء حوله مؤامرة كونية. الحق يُقال إنه بدأ هذا قبل أن يصير التآمر تهمة رائجة، يرددها الجميع تقريباً وتبناها وسائل إعلام وإعلاميون معروفون. أي شخص لا يعجب جبريل متآمر. صبي المقهى الذي يتأخر في إحضار حجر الشيشة له متآمر. بائع عصير القصب المتجه على ناصية الشارع متآمر. مديرتة في العمل طابور خامس. الهواء الذي تنتفسه عميل لجهات أجنبية.

ولا فائدة طبعاً من محاولة إقناعه بالعكس، ثم كيف يقنع أحدهم مدرعة بشرية، لا عمل لها غير إصدار الضجيج، بأي شيء؟! صوته عالٍ حتى وهو يحاول الهمس في أن جاره بسر يرغب في ألا يعرفه أحد سواهما يصل الكلام إلى كل زبائن المقهى بلا محاولة منهم للتصتت، في حين يبدو جبريل غافلاً عن أن سره أصبح مشاعراً يعاني من ثقل في السمع، لذا كثيراً ما يطلب من محدثه إعادة كلامه أكثر من مرة، شاكياً من الشباب المُخَنَّث، الذي يتحدث بصوتٍ منخفضٍ كالنساء بالنسبة له النساء كائنات أدنى بمراحل من الرجال تمثلت مشكلة حياته في أن رئيسته في العمل امرأة، وعلى الرغم من أنها مديرة في مؤسسة حكومية وهو قرأش في مكتبها، فإنه يتعامل كما لو كانت قد جارت على حق أصيلٍ له في أن يكون رئيسها، لا لشيء إلا لكونه رجلاً وهي امرأة.

«الدنيا اتقلب حالها!»

ترن الجملة الأثيرة لجبريل في ذهن مراد، كأنما يسمعها منه مباشرة، فيرد في الحال:

«ومين سمعك يا جبريل!»

اعتاد الرجل ترديد جملته هذه كلما جاء ذكر الست المديرة؛ المعروفة عنده بلقب «الولية الناقصة»، وإذا اعترض مستمعه على إهانته للمرأة وراء ظهرها، يسارع بالمحاجة بأن: «النساء ناقصات عقل ودين».

«شكوكا بقى في كلام النبي! ما أنتم عالم كفره ما تعرفوش ربنا».

يقول بصوته الجهوري المشروخ، فلا يكلف أحد نفسه عناء الرد بأن الحديث المشار إليه ضعيف النسب. يبتسم جبريل بظفر، ويبدأ في وصلة غناء مواويل، لا يعرف أحد من أين يأتي بها! ما يلفت نظر الجميع أن صوته يرقُّ في الغناء حتى يكاد يصير شجياً.

«أبوياء زرع لي جنينة كلها برتقان خالص، أزراع وأزوح ألقى البربري حارس، والنبي، يا ابن الكلب، لأبيك وأشتري حارس، وأسد باب الوصية، وأهرب من البلد خالص».

يعني بخشوع كما لو كان ينشد «نهج البردة»، وحينيصمت لا يعلق أحد على غنائه بشيء. كان الجميع اعتادوا هذه الفواصل الغنائية القصيرة التي يقطع بها أي حديث دون اكتراث أو تأنيب ضمير.

لم يكن مراد يعرف أين يسكن جبريل! ولا من أين أتى إلى القاهرة! عندما سأله مرة أخيره بأنه يقيم مع أسرته في بشتيل. لمح في عيني مراد جهله بالمكان، فواصل كأنما ينهي الموضوع:

«مش بعيدة. الطريق الدائري خلاها فركة كعب. اللهييسيه بالخير الرئيس مبارك مطرح ما هو بقى».

ثم نظر له متحدياً وباحتاً عن لمحة اعتراض على وجهه، قبل أن يقوم متعللاً بأنه تأخر و«الولية الناقصة» أنذرتة بالنقل لو لم يحسن من أدائه في العمل.

جبريل، كما قدمته الحوائط وقنذاك، بدا كمن عثر على صوته أخيراً، مع الجموع الثائرة، فقرر ملء الفضاء العام بصراخه المتلثم المرتبك. ما كان يلفت النظر إليه ليس حكمة ولا المعية ما، في ما يكتبه ويرسمه على الحوائط، إنما العكس تماماً: التلثم والتناقض بل وربما البلاهة، مع الإصرار على أن يضي بصمته على مشهد مصر الصاخبة.

ما إن سقط مبارك، حتى رسم أصحاب المحال التجارية على الأعمدة الحاملة للوصلة بين الكوبريين، علم مصر يعلوه شعار الجيش المموه. الألوان الزاهية عكست فرحة وفخرًا شاعا وقتذاك. بعد فترة قليلة، وفوق الأعمدة نفسها، راح جبريل يعلن عن نفسه، بادئًا ثورته الخاصة.

في وقت كانت حوائط المدينة تكاد ترتجف فيه من كم الغضب المبهوث فوقها ضد الفساد وفلول النظام السابق، و ضد التقاعس عن تحقيق أهداف الثورة، اختار جبريل أن يعلن حربًا تخصه وحده.

فوق الرسوم المتباهية بـ«وحدة» الجيش والشعب، أخذ يكيل السباب البذيء إلى ممثل شهير. ساعتها، لم يكن قد تشجع إلى حد توقيع ما تخطه يده، فقط غمر الأعمدة كلها تقريبًا بهجومه الجارح، غير الموقَّع، والمكتوب بخطٍ مرتبك، وبأخطاءٍ إملائية بالجملة.

محو الشتائم، لم يثبط همته، إذ واصل كتاباته، وإن بدأ يوسِّع من نطاق اهتماماته. تناسى على ما يبدو مشكلته مع ذلك الممثل، وراح يشتبك، على طريقته، مع الأحداث من حوله.

كتب: «مصر فوق الجميع»، وربما لأنه وجد العبارة غير محددة ولم يُستدل منها على من هم هؤلاء «الجميع»، تلاها بأخرى، يمارس فيها شوقينية حذرة: «مصر فوق العرب»!

غير أن هذا لا يعني أنه معادٍ للعروبة أو من المنادين بالهوية المصرية الفرعونية، لأنه سرعان ما دافع عن عروبة القدس مطالبًا بسقوط إسرائيل واتحاد العرب.

الشعارات الدينية كان لها حضور بارز في جرافيتي جبريل، إذ بدا معتزًا بكونه مسلمًا عبر عدد من الشعارات.

«اسلموا تسلموا»! تواجه هذه الجملة من ينزل من كويري ١٥ مايو، قادمًا من الزمالك، دعوة مهذبة يوجهها جبريل إلى غير المسلمين، لكن مع التقدم في الشارع ثمة جرافيتي يُمثِّل عناق الهلال مع الصليب، كُتب تحته: «مسلم ومسيحي يد واحدة» مرة، و«مسيحي ومسلم يد واحدة» أخرى.

لطالما حار مراد في معرفة: أي الرجلين هو جبريل! أو بالأحرى أي هؤلاء هو: أهو المصري الشوفيني؟ أم المسلم المتعصب؟ أم المتسامح الحريص على الوحدة الوطنية؟ أم القومي المدافع عن عروبة القدس؟!

في فترة معرفته الأولى بجرافيتي «أبو منى»، كانت هذه الأسئلة تبرز في ذهنه، غير أنه سرعان ما كان يتجاوزها بقول: «وأنأ مالي! دع الخلق للخلق. يتحرق دول على دول».

كان كل شيء يوتره في تلك الفترة المُوارة، يعود إلى شفته وفي رأسه ضجيج العالم كله. يغلق النوافذ ويسدل الستائر محاولًا استعادة الصمت الأليف لشفته، لكن هيهات. قاطع التلفزيون تمامًا، وحتى إذاعة الأغاني، تجنب الاستماع إليها لأنها سخَّرت معظم فقراتها لإذاعة أغنيات وطنية تعود لعقدي الخمسينيات والستينيات. لاحظ أن المذيعين والمذيعات يخاطبون المستمعين كما لو كانوا أطفالًا، وأثار هذا غضبه ونقمة. اعتاد سدَّ أذنيه بسدادتين مطاطيتين والسير في الشوارع الجانبية، وعدم النقاش مع أي شخص حتى حول حالة الطقس والتغيرات المناخية.

في المقهى، حيث كان يجلس مرة أسبوعيًا بعد انتهائه من عمله، في انتظار عملاء يجلبون له مسودات كتب كي يدققها لغويًا، اعتاد اختيار ركن بعيد عن الضجيج، ومع هذا كان يصله صوت جبريل الغاضب دومًا يطلب مراد قهوة سادة، لا يقترب منها، ويحذق في اللا شيء ساهبًا عن حوله يستلم المخطوط المطلوب تدقيقه، ويدعو حامله إلى شاي أو قهوة، فيعتذر ويغادر سريعًا المتعاملون معه يعرفونه جيدًا، ويحترمون ميله إلى العزلة وعدم حبه لتضييع الوقت في كلام لا يعنيه في شيء. مثل كل تفاصيل حياته المخططة والمنضبطة، كانت لجلسته هذه قواعد لا يحدد عنها. يجلس كل أربعماء من الثانية بعد الظهر حتى الثالثة في ركنه القصي، لأنه لم يكن يستطيع استقبال عملائه في مكتبه، فهذا عمل إضافي الغرض الظاهري منه رفع مستوى الدخل، لكن حقيقة الأمر أن مراد لم يكن في حاجة إلى المال، فميراثه من أرضٍ زراعية باعها ووضع ثمنها في البنك، أكثر من كافٍ لتأمين مستقبله حتى وفاته، الفكرة أنه كان يستشعر لذة خاصة، وهو يصحح أخطاء الآخرين، ويخلص كتاباتهم من الركاكة والنواقص. لطالما أقع نفسه، أنه عبر هذا الفعل البسيط، يعيد إلى العالم المختل بعضًا من اتزان، يكفّر عن خطاياها هو، ويعتذر بطريقة غير مباشرة لوردة عما ارتكبه في حقها.

كان أحيانًا يسأل نفسه: ما علاقة هذا بوردة؟

ثم يطرد التشكك في الحال، مؤكد أنها ستكون راضية لأنه يقلل من حجم الأخطاء في العالم. ورده، كما يعرفها، تسعدها أقل اللفات والأفعال. يتضايق بلا مقدمات، لأن وسواسًا ينخر في رأسه بفكرة مفادها أنه بخل عليها بأبسط أسباب السعادة.

في الأسابيع التي لا يأتيه فيها أحد بمخطوط في حاجة للتدقيق، يظل جالسًا أيضًا حتى تمام الثالثة، ثم يغادر جلسته بلا ضيق أو ارتياح، فقط بحياد يتقن التعامل به مع كل ما يقابله. يتجنبه زبائن المقهى باستثناء جبريل، إذ كان الوحيد القادر على كسر القوقعة التي يحيط بها مراد نفسه، أو درع السلحفاة العزيز عليه كما يسميه. بصوته الغليظ يناديه بالدكتور، ويسحب كرسياً ويجلس في مواجهته شاكياً من مديرتة ومن وقاحة النساء وإمرارهن الحياة على الرجال. لا يُفْتُّ من عزمه أن مراد يرد عليه بالكاد، بهزة رأس أو بههمة خافتة، بل يواصل شكواه.

لم يفقد جبريل في أي لحظة القدرة على إدهاش مراد. وحده كان قادرًا على إثارة حيرته وفضوله. كان من المستحيل عليه تفسير مواقف الرجل وآرائه وفق منطق مألوف. لا ينشغل مراد بتحليل سلوكيات أحد، قُتِل فضوله قبل زمن طويل، لكن جبريل مثل له أحجية من نوع ما خُيِّل إليه أنه انبثق فجأة من أرض العدم في فضاء حياته هو أقتع نفسه بأنه ظهر في عالمه لغرض ما، لدور محدد عليه تأديته توجس من هذا الخاطر، لكنه ظل يتنامى بداخله بمرور الوقت، خاصة مع حرص جبريل على فرض نفسه عليه على الرغم من محاولاته هو التملص منه.

ذات يوم فاجأه جبريل بمعرفته أنه يعمل في المؤسسة الصحفية المعروفة، فتساءل مراد ماذا أيضًا يعرف هذا الرجل الفوضوي عنه! شرح له أنه ليس صحفيًا، إنما موظف في الأرشيف، ولا علاقة له بما يُنشر في الجريدة، ومع هذا أحضر جبريل في الأسبوع التالي أجددة مهترنة قدمها له بفخر باعتبارها مذكرات كتبها خلال الفترة التي عمل فيها بالعراق خلال ثمانينيات القرن العشرين. تظاهر مراد بالاهتمام بينما يتصفح فقرات ركيكة يتحدث فيها جبريل عن الغربية وعن حبيبة لا يشير لاسمها هز رأسه واعدًا إياه بقراءة المذكرات كاملة وإعادة الأجددة له في أقرب فرصة بدا جبريل محبطًا كأنما تُوَقَّع من مراد أن ينتحي جانبًا في المقهى لقراءة ما كتب والبدء في مديحه مع أول جملة يقرأها.

خاف مراد أن يبدأ جبريل في الإلحاح عليه كي يساعده في نشر مذكراته، لأن ذلك سيضطره للانقطاع عن المقهى الذي صار الجلوس عليه جزءًا من روتينه الأسبوعي، ومراد لا يرحب أبدًا بأي تغيير ولو طفيف في روتينه المعتاد.

وكما لو أنه استدعى شبحًا وأغراه بتخوفه هذا، شرع جبريل في ملاحظته بلا هوادة، متخيلاً أنه يضمن عليه بالمساعدة، فاضطر مراد لهجر جلسته الأسبوعية في المقهى، وصار العملاء القليلون يتركون له المخطوطات المراد تدقيقها في استقبال الجريدة. في أحيان كثيرة، كان يشعر بأن جبريل يسير خلفه في طريقه من وإلى محطة مترو الإسعاف.

يستشعر خطوه الثقيل وحضوره المتجهم، ويكاد ينتهي إليه صوت أنفاسه، لكنه حين يستدير للتأكد من وجود مُلاحقه، لا يبصره. يقول في سره إن الرجل اللئيم ابتكر وسيلة لإخفاء نفسه عنه، لكن هيهات، فمراد الوثائق من قدرته على استكناه حُجُب الخفاء ورؤية ما يتدثر فيها، موقن من مراقبة جبريل له وضغينته تجاهه.

المرات القليلة التي رآه فيها رأي العين قبل تقاعده مباشرة، أشاح الرجل فيها بوجهه بعيدًا عنه وتظاهر بأنه لم يره. حيلة مكشوفة، الغرض منها التغطية على ما يضره له من أذى وما يحيكه من مكائد. هذا ما بات مراد يؤمن به بعد أن جلا التقاعد واعتزال الناس بصيرته.

يهز النسيم أغصان الجهنمية، وتغزو الظلال غرفة المعيشة تقف حمامة رمادية على حافة النافذة من الخارج، فيشعر مراد بالعري أمام نظرتها لم يعد يطيق أن يبرز تحت نير النظرة المسلطة عليه من أي كائن آخر يتحامل على نفسه حتى يقف، يشعر بالترنح لكنه يقاوم. يتجه صوب النافذة ويهش الحمامة بالطرق على الزجاج المغلق، فتبتعد مفزوعة. يسدل الستارة، فتغمره الراحة. تذكره طمأنينته المفاجئة بدفتر تجلياته، يُخرجه من الدرج، ويعكف على التدوين.

مسيرة

كنتُ في غرفة لا يسعني تحديدها أو تذكر معالمها، تحضرني فقط مرآة طولية وقفت أمني أمامها مرتدية جلابيًا برتقاليًا، نتفحص شكلها فيه منعكسًا في المرآة، وفي الخلفية تجلّت أختي ليلي هشة بحضور يشبه الغياب.

لم يخطر لي أن البرتقالي وغيره من ألوان مبهجة، لم يكن يومًا ضمن اختيارات والدتي، كنتُ مشغولًا فقط بإقناعها بأنه ينبغي عليّ مرافقتها إلى الخياطة كي أشرح للمرأة ما تريده هي بالضبط وما يناسبها، نظرت لي أمني بلا تعليق ودون اقتناع، فأضفتُ أن لديّ ضيقًا أنتظر فقط توديعهم، وسوف أتفرغ بعدها للذهاب معها.

لم تعلق أيضًا، وأمعت أختي في تواريخها، أما أنا فخرجتُ إلى شرفة محاطة بالأشجار، ومن خلال الأشجار رأيتُ من بعيد جسرًا مغلقًا بالرمادي، لم يكن ضبابًا، كان يشبه لقطة سينمائية قصدها المخرج خافتة مضببة إمعانًا في التأثير في نفوس المتفرجين.

على الجسر لاحت لي مسيرة ممتدة وثلاثية، زوج من البشر يسيران معًا بوهن ويليها زوج ثلث وثالث وهكذا الجميع يرتدي ثيابًا برتقالية داكنة يتضاد لونها مع رمادية الجسر، فتظهر رغماً عنه بدوا كالمسافرين إلى حتفهم، وتأكدتُ من هذا، حين بان لي في أثرهم رجال مدججون بالأسلحة وبضعة كلاب بوليسية.

نسيبتُ كل شيء عن أمني وأختي في الداخل وتعلقت عيناى بجسر رمادي أضحي فارغًا، قبل أن يخبو وتتعدم رؤيته.

فكرتُ في أن الجسر لم يختف، بل زادت جرعة رماديته بحيث توارى عن العيون على الرغم من وجوده، شأنه في هذا شأن مئات الأشياء التي أثق في وجودها، ومع هذا لا يمكنني رؤيتها.

في خضم هذا، كنتُ واعياً بأنّي منفصلٌ عن واقعي، غارقٌ في واحدة من إشرافاتي، أحب إشرافاتي هذه لأنها تتيح لي - على الرغم من كل شيء - رؤية أمي الميتة وأختي الغائبة. تذكرتُ وردة، فتمنيتُ رؤيتها وخشيتُ منها في آن.

دوار

وجدتُ نفسي في أرضٍ دائريةٍ منبتهٍ عما سواها. نظرتُ حولي، فلم أتمكن من رؤية ما يتعدى الدائرة الأرضية، كأن لا عالم ولا حياة خارجها. عرفتُ أنني سوف أعيش هنا محكوماً بالجهل والغفلة، ولن يمكنني إبصار أبعد من موطئ قدمي ألمني هذا وأراحي في أن سبب الألم مفهوم، أما الراحة فمردّها أنني شعرتُ أخيراً بأنني بلا مسؤوليات أو واجبات كائن غُفل لا أحد يشعر به أو يتوقع منه شيئاً، في الحقيقة لم يكن ثمة أحد سواي أنا فقط والعالم من بعدي خواء وفراغ انتبهتُ إلى أن دائرتي الأرضية ليست ثابتة، إنما تترجح تراجيحاً لا يكاد يُلحظ تساعلتُ في سري إن كانت محمولة فوق مياه من نوع ما، ثم توقفتُ عن التساؤلات، ورحتُ أخطو موائماً حركة جسدي مع إيقاع الرجرجة الخفيفة. أبصرتُ على مقربة مني صفّاً من أشجار الجنكو؛ أقدم الأشجار على سطح البسيطة كنتُ قد حفظتُ بنفسني ملفاً في الأرشيف عنها، فتعرفتُ عليها على الفور، وشعرتُ كأنما أعرفها منذ زمن سرتُ في طريقي، مديراً ظهري لأشجار الجنكو، فمررتُ بأشجارٍ أخرى ميّزتُ بعضها وجعلتُ أغلبها.

شعرتُ بأنني في جنةٍ ما، ثم تذكرتُ أنه لا يمكن لغوياً وصف حديقة بالجنة إن لم تحتو على نخيلٍ وأعناب، فقررتُ الانشغال بالسير بحثاً عن النخل والكروم. منحتُ نفسي هذه الوظيفة هنا، وشعرتُ باشتياق هائل إلى أرشفة كل شيء حولي، وإن لم أعرف سبيلاً لأرشفة الأماكن والطبيعة والطرق.

في النهاية، استرحتُ إلى فكرة أن الأرشفة الذهنية كافية شرط ألا تخذلني ذاكرتي.

* * * * *

5

منذ تقاعده، قبل سنتين ونصف، انتظمت حياة مراد في روتين لا يكاد يتغير يخرج يومياً في الصباح الباكر ليشتري نسخة من كل جريدة، لا يهمل حتى تلك الراكدة عديمة الأهمية إن شئنا الدقة، كل الصحف عديمة الأهمية من وجهة نظره، لكنها وسيلته لما يتعداها ويتعداه.

يعود ومعه طعمية ساخنة وعيش «فينو» وثلاث ثمرات فاكهة بالعدد. واحدة يتناولها مع الإفطار وثانية يُرجئها إلى ما بعد الغداء، والثالثة هي كل عشائه.

منذ صغره لا تحلو له الطعمية سوى بالعيش الفينو وقتها كانت عزيزة المنال، إذ لم يكن هناك من يبيعه في قريته الصغيرة، وبالتالي لم يكن يأكلها إلا حين يزور المدينة أو القرية الكبيرة المجاورة لقريته، حيث مركز الشرطة والوحدة الصحية والكثير من الطعمية الساخنة المحشوة في العيش «الفينو».

في أوقات أخرى، كان يروقه الاكتفاء بساندوتش بيض مسلوق بالليمون المخل، تخصص فيه مطعم صغير ملاصق لموقف سيارات الأجرة التي تقل الركاب من تلك القرية إلى المدينة يتردد على الموقف خصيصاً للاستمتاع بهذا الساندوتش فيما يراقب السائقين والمارة حاول أن يُعدّ مثله في بيتهم، لكنه لم يفلح لا أحد يمكنه تخليل الليمون بمهارة أمه، وسلق البيض لا يتطلب قدرات خاصة، والعيش الفينو كان يشتريه من المخبز نفسه الذي يتعامل معه صاحب المطعم الملاصق للموقف، ومع هذا لا يكون المنتج النهائي بالطعامه نفسها.

اعتاد أن يلوك الساندوتش المجهز في البيت بلا ذرة استمتاع، مندهشاً عندما ذهب مرة لُبغاجاً بالمحل مغلقاً إغلاقاً نهائياً، اعتبر الأمر مؤامرة مدبرة ضده سأل عن سبب الغلق، وعرف أن صاحب المحل مريض ولم يعد قادراً على العمل، ومع هذا ظل هو شاعراً بالغبن لحرمانه من ساندوتشه المفضل.

يتذكر الطعم وهو عائد بجرائده وبالطعمية الساخنة والعيش الفينو وثلاث ثمرات برتقال، فيجري ريقه، ويتمنى لو توقف به الزمن عند تلك المرحلة، حيث لا مسؤوليات ولا هموم حقيقية، وحيث هو كائن غافل يرفل في بحر من المسرات العابرة. وأخته ليلي صغيرة كان يصطحبها معه، ويفرح حين يروفا ساندوتش البيض المسلوق بالليمون المخل. يشتري لها ما تشتهي من حلوى ويعودان سيراً إلى قريتهما.

بعد سنوات، اعتاد انتظار وردة في موقف سيارات الأجرة المجاور، يغادر القرية قبلها بساعة أو ساعتين، يتسكع هنا وهناك قبل التوجه إلى الموقف في انتظار مجيئها حين تُهلُّ، يتظاهر بتجاهلها، ينظر إلى الجهة الأخرى، محاولاً كتم غضبه بسبب تحديق الرجال فيها. تجلس، كما أخبرها، في المقعد الأمامي ويدفع أجرة إضافية كي تُبقي المقعد بينها وبين السائق فارغاً. ويجلس هو بجوار الشباك في آخر كنبه بعربة الميكروباص.

حين يصلان إلى طنطا، يتبعها حتى يتبعها عن موقف السيارات، ثم يسيران معاً في شوارع المدينة بحرية. يتجولان في شارع سعيد أو شارع البحر، يدخلان السينما في حفل الظهيرة أو يجلسان في كازينو غير مطروق كثيراً.

يبتهد مراد، فيخرج من عالم ذكرياته. يضع مشربياته على مائدة السفرة، ويملاً «كنكة» القهوة بالماء ويضيف إليه البن الغامق ويبدأ في التقليب، ثم يتركها على نار هادئة. يجلس إلى المائدة ويحشو العيش الفينو بالطعمية، ويغمض عينيه وهو يلتهمه. ينظر إلى ساعته، أربع دقائق فقط كل ما تحتاجه القهوة، يلحقها كل مرة في اللحظة الأخيرة قبل الفوران. لو له أن يفخر بشيء في حياته، فسوف يفخر قطعاً بقدرته على تقدير الوقت اللازم بالضبط لإعداد قهوته. لا ثانية زائدة أو ناقصة. حتى إذا سها، ورفع شعلة النار قليلاً، يذهب أيضاً في اللحظة المناسبة بالضبط. صار مقتنعاً بأن لديه ساعة بيولوجية أو غريزة ما مضبوطة على الوقت اللازم لتجهيز قهوته... يعود بالمشروب الساخن، يزيح الأكل جانباً، ويرتشف قهوته على مهل متلذذاً بطعمها. القهوة المثالية من وجهة نظره هي الخالية من أي إضافات: لا سكر، لا حليب، ولا هيل.

يُدخل الفنجان ويواقي الأكل إلى المطبخ، يُنظف الطاولة، ويفرد الجرائد أمامه بادئاً العمل. يقص الأخبار والتقارير والحوارات والتحقيقات التي تلفت نظره، ويصنفها وفقاً لموضوعها، ويبدأ في لصقها على صفحات بيضاء، يحفظ كل منها في الملف المخصص لموضوعه يستغرق الأمر الساعات الأولى من نهاره في حوالي الثانية عشرة، يجهز فنجاناً آخر من القهوة ويتمدد على أريكة غرفة المعيشة بعد الانتهاء من قهوته الثانية - حتى الواحدة. ما إن تعلن دقائق الساعة وصول الموعد المنتظر، حتى يفتح الراديو على إذاعة الأغاني للاستماع إلى فقرة محمد عبد الوهاب، ينسجم مع الصوت العظيم ويتسلطن، فينسى كل شيء آخر.

تذكر أنك حملت رواية أطلس الخفاء حصرياً من موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل وكتب في خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظرك .

يغلق الراديو مباشرة بعد انتهاء فقرته المحببة تلافياً لأن يصفغه منسق الأغاني بما قد يعكر صفو يومه لا يُعقل مثلاً أن تباعته بعد عبد الوهاب أغنية لهاني شاكر أو ميادة الحناوي أو محرم فؤاد لا يصح هذا ولا يجوز محتفظاً بانتعاشه كاملاً لنجاته من فخ مماثل، يخرج دفتره الرمادي من درج الكومود في غرفة نومه، ويتجه إلى الطاولة الخالية الآن من كل شيء يفتح الدفتر، ويُخرج قلمه الحبر الأزرق ماركة باركر وينكفي على التدوين، دون أن يترك لنفسه فرصة للتفكير إن حدث وتابعه أحدهم، في عكوفه الطقسي هذا، سيطن أن هناك صوتاً داخلياً يُملي عليه ما يجب كتابته، إذ لا تشي ملامحه بلحظة تردد أو وقفة للتدبر في ما قد يضيفه لاحقاً.

جنة من أعناب ونخيل

وجدتني في عربة تتحرك ببطء بلا سائق ولا صوت، عيناى مثبتتان على زجاج النافذة، أتابع عبره السور النباتي الخارجي لحديقة هائلة. لم يتبدأ لي منها سوى هذا السور المكوّن من أشجار ملتفة على بعضها بعضاً بحيث تخفي الجانب الآخر منها، ومع هذا شعرت كأنما بوسعي رؤية داخل الحديقة. أغمضت عينيّ فرائث ما يحجبه السور عن بصري. في الداخل، ثمة نهران يلتقيان عند نقطة ما ليكونا نهرًا واحدًا يشق الحديقة من المنتصف، ويأخذ مسارًا عريضًا، وتحيط به من ضفتيه نباتات غاب وبردي.

عرفتُ، بطريقة مبهمّة، أن النهر المتكوّن لتوه من التقاء النهرين يصب في بحر تبدأ حدوده خارج حدود الحديقة من الجهة المقابلة رحنُ أتخيل المياه المنسابة من أسفل أشجار السور الملتفة المحيطة للحد الذي يلتقي عنده النهر بالبحر: مياه عذبة في جنة من نخيل وأعناب، ومياه مالحة في الخارج.

عرفتُ أيضًا أن بساتين النخيل تقع على ضفة النهر الغربية، فيما تقع الكروم على ضفته الشرقية، وفي بقعة ما على حدود بساتين الكروم تنتصب شجرة ياسمين تنتشر فروعها في شتى الاتجاهات، وتنفض عنها زهورها بشراهة، بحيث تنبلج الشمس كل صباح على ياسمينية لا تحمل زهرة واحدة، ومئات الزهور الساقطة على الأرض كأنها تُدفن تلج متكومة بعضها على بعض.

تماثيل من اليشب

في حديقة مشيئة على هيئة مدرجات، كل مدرج منها مزروع بأشجار وزهور مختلفة عن بقية المدرجات، رحنُ أنقل من مدرج إلى آخر مستمعا إلى خرير ماء يتساقط من نافورة من المرمر تقع في المدرج الأعلى، يتداخل مع الخرير أغنية عذبة بموسيقى لم أسمع مثلها من قبل وبلغة مستغلقة على فهمي. تدرجت ألوان الأشجار المتقرمة بين أطياف الأخضر والأحمر الخريفي.

شيء ما أخبرني أن حديقتي هذه مزيج من نمطي الحداثق الصينية واليابانية. حين وصلتُ للأعلى حيث النافورة المولدة للماء والخرير، نظرتُ من هناك إلى منطقة خلفية بالأسفل، لم أكن قد انتبهتُ إليها في سعودي.

تراصت فيها تماثيل لبودا متدرجة الأحجام، يمكن وصف بعضها بالمعلاقة. ما لفت نظري أكثر من غيره أن التماثيل كلها - حتى الضخم منها - مقدودة من أحجار كريمة تنوعت بين الفيروز واليشب الأخضر والأبيض والعقيق بألوانه المختلفة والأوبال. من بينها، تعلقت عيناى بتماثيل اليشب على وجه الخصوص. بدا الوجه الضاحك المتماثل فيها كأنه حي لا جامدًا صامتًا.

نزلتُ نحو منحوتات الأحجار الكريمة هذه، وقفنُ أتأملها لبرهة، لكن حين مددتُ يدي لألمسها، لم أمس سوى الفراغ، على الرغم من أنها ظلت قائمة أمام عينيّ أدرتُ ظهري لها وخرجتُ من الحديقة في ساحة فضاء ملاصقة لها رأيتُ تسع نساء يرقصن رقصة غريبة كأنهن يسمعن موسيقى لا يسمعهن سواهن واصلتُ سيرتي في الشارع العريض المحاط من الجانبين بأشجار سامقة تفرش ظلها ولا تتيح للشمس التسلسل من بين أغصانها فكرتُ في أن

الشجر مألوف لي على الرغم من أنني لا أعرف اسمه برقت في رأسي فكرة أن إشرافتي طبقات وطبقات، وأنني في مناطق متوارية في ثناياها مُطَّلَع على كثير مما أظنني لا أعرفه. في تلك الدهاليز السديمية أدرك الطرق الواصلة بين جغرافيا إشرافتي كلها، وألم بخارطتها بأدق تفاصيلها. خطر لي أيضًا أنني - لسبب غامضٍ عليّ في هذا البعد، وجلي في البعد الآخر الخاص بالاستبصارات والإشرافات - أدرك جيدًا أسماء الأشجار كلها ودلالات التماثل وما الذي يفضي إليه المنحدر المظل على فم العالم، وما يحدث في مدينة الأبعاد الثنائية والبشر الأشبه برسوم «كروكية». في منتصف الشارع تقريبًا صادفتني هوة مخيفة تقصل الجزء الذي أقف فيه عن الجزء الآخر، فتوقفت قبل أن تزل قدمي وأسقط فيها.

عالم من الدروب المتقاطعة

أسير في دربٍ موحش، أشعر بنفسي خفيًا متخلصًا من عبء الزمن وثقل الأيام. أحببت هذه النسخة مني، مدرجًا أنها ليست أنا بالتأكيد. أو ربما تكون إياي في حالة أخرى ومكان آخر. أتفرج عليها مثلما أفعل مع غريب موسوم بشيء لافِت للنظر، ثم أنساها، وأحدس بتلاشيها، فلا يبقى أمامي سوى التحديق في المشهد نفسه. أكتشف أنني أمام شبكة من الدروب والطرق المتقاطعة، تعرفت من بينها على شارع أشجار البواباب، فاطمانتُ لبرهه، لكنّ اطمئناني اضْمَحَلَّ بانتباهي إلى أن العيش في عالم مماثل يعني أن يتحول المرء إلى عابر سبيلٍ أبدي؛ إذ لا جَلَّ يُرتجى، إنما ارتحال دائم. ثم إنَّ تقاطعات الطرق اللانهائية هذه، تتطلب من سالكيها اتخاذ قرارات لا تُحصى، خاصة بأي الطرق عليه أن يسلك؟ ولماذا؟

لم يدم تعاطفي مع عابر السبيل المقترض طويلًا، إذ سرعان ما انشغلتُ بالخوف من إمكان أن تنقطع بي السُّبُل، فأظَلُّ عالقًا إلى الأبد في تلك البقعة المنبئة الصلة بأي مكان آخر أنف من الناس، ولطالما تمنيت العيش في عالم خالٍ منهم، لكنَّ غيابهم التام عن جغرافيا إشرافتي هذه، قبض قلبي، وأورثني الغم والكآبة لم أجد تفسيرًا مقنعًا لهذا، فواصلتُ الخطو، كيفما اتفق، في الدروب المتقاطعة وقد أقنعتُ نفسي بأن واقعي لا يختلف عنها كثيرًا، فطالما كانت حياتي قاحلة، باستثناء سنواتي الأولى ربما، ولطالما أجبرتني الحياة على خيارات وقرارات كنتُ أفضل لو لم أضطر لها.

6

البيت، في أول القرية، كان محتميًا بعزلته لم يفصله عمًا يجاوره من بيوت سوى خطوات قليلة، ومع هذا لطالما بدا لمراد الطفل، كما لو أنه محاط بجدران لامرئية تمنع الآخرين من الاقتراب منه، وتمنع سكانه من التواصل مع عالمهم المحيط.

«بيت العبد»؛ هكذا كانوا يطلقون عليه. نوافذه مغلقة دومًا، وأبوابه لا تُفْتَح إلا نادرًا. في مرات معدودة رأى مراد أطفال البيت يخرجون للعب أمامه، وعلى عادة الأبوين، حافظوا على عزلتهم؛ لم يشاركوا أبناء الجيران لعبهم، كما تجنّبهم هؤلاء بدورهم.

مع الوقت، أدرك أن كلمة «العبد» لا تشير إلى اسم صاحب البيت أو لقب عائلته، إنما هي صفة اقترنت به بسبب اللون الداكن لبشرته. كان يمتهن دفن الموتى، لذا لم يعرف مراد في البداية، هل كان الناس يتجنّبونه، بسبب مهنته أم لون بشرته!

حين التحق مراد بالمدرسة الابتدائية، في قرية مجاورة، عرف شخصًا آخر يُطلَق عليه «العبد» أيضًا، ولم يكن يجمعه بالأول سوى لون البشرة ذاته والعزلة المفروضة عليه، ففهم الصغير أن المسألة أبعد من مهنة غير مستحبة.

كان الرجل يملك مطعمًا للقول والطعمية، على مقربة من باب المدرسة، لكنَّ الأطفال اعتادوا مقاطعة مطعمه، وقطع مسافة طويلة لشراء الساندويشات من مطعم آخر.

في ذاك الوقت البعيد، لم يدرك مراد المعصوبة عيناهايغمامة من ضباب الطفولة، أن عزلة البيت الواقع في أول القرية، ستلعب دورًا محوريًا في حياته. لكنه بمرور الأيام، وببداية تعلقه بوردة في مطلع شبابه، راح يجمع كل ما يتناهى إليه عنها وعن أصلها وفصلها. كانت هذه التفاصيل تُتداول همسًا وعلى نحو مُلغز، غير أن شغفه بالجميلة السمراء أمدّه بالصبر والدأب اللازمين لغزل خيوط حكايتها، أو بالأحرى حكاية أبويها، في نسيجٍ محكم.

عرف مثلًا أن بيت «العبد» هو بيت أبيها وأبنائه من زوجته الأولى، وأن لونها الخلاسي الذي لطالما خلب لُبّه، نتاج التزاوج بين لون أبيها الداكن ولون أمها الأفتح. لم تستمر الزيجة طويلًا؛ ما يكفي فقط لحمل العروس التي لم يفهم أحد كيف أغواها رجل يتجنّب الناس، ويمتحن حرفة تثير نفورهم وانقباضهم، لكن الجميع تفهم هجره لها، وعودته إلى زوجته الأولى وأبنائه منها قبل حتى أن تولد ورده.

تبني أهل القرية قصة مفادها أن الأم حملت سيفاحًا من آخر، والزواج من عثمان العبد كان مجرد حيلة متفق عليها ومدفوع ثمنها كي تمنح لابنتها أبا شرعيًا، لكنَّ آثار جيناته البادية على صغيرته، سرعان ما وأدت هذه الفُرْية في مهدها، فظهرت قصة أخرى لا تلغي نظرية السيفاح، بل تقرها مؤكدة أن الأب هو عثمان بالفعل، لكنه اعتدى على الأم، فحملت منه، واضطرت إلى قبول الزواج منه تجنبًا للفضيحة.

تجاهل مروجو القصتين أن أم وردة بانث عليها كلالعلامات الخاصة بالعشاق المخذولين بعد تطبيق عثمان لها؛ دَوَّت كنبات حُرْم من الضوء والغذاء، وامتنعت عن الخروج من بيتهم الواقع في الجهة الشرقية من القرية، وتركت رعاية ولبيتها لأمها فردوس، فكبرت الصغيرة وهي لا تعرف غير جدتها أمًا لها، خاصة أن الأم سرعان ما ماتت وفق الرواية الرسمية، أو أحرقت نفسها بحسب الهمسات التي تناهت إلى مراد من أكثر من مصدر.

بالغت فردوس في رعاية حفيدتها وتدليلها، ولم تأبه بالنظرات الغاضبة أو الناقمة التي لاحقت الصغيرة في مسيرة تفتحها إلى أنثى تلفت الأنظار أينما حَلَّت، سَدَّت أذنيها أيضًا أمام الاعتراضات على جراءة وردة، وأوقفت كل من ألمح إلى أن مصيرها سيكون نسخة من مصير أمها، إن لم تحكمها بيدٍ من حديد، عند حده.

أما وردة نفسها، فكانت غافلة عن كل ما يثار حولها، لم يرَها أحد قط على مقربة من بيت أبيها، اعتادت فقط كطف الليمون من الأشجار المجاورة لبيت جدتها، والتمدد ساعة العصاري فوق السطح غير عابئة إن كان هناك من يراقبها من فوق الأسطح المجاورة أم لا! والنزول للنتزه على النيل، من وقت لآخر، مختالة بشعرها الأبنوسي الطويل، وعينيها القادرتين على تعليق القلوب بصاحبتهما دون أدنى مجهود منها. ومع أنها لم تنل أي حظ من التعليم، كانت حريصة دون ممانعة من فردوس على ارتداء ملابس تشبه ما ترتديه نساء المدينة القريبة التي تزورها مرة على الأقل شهريًا. تدخر لها فردوس ما يفيض عن حاجة المتطلبات الأساسية للبيت، وتشتري لها أقمشة ملونة وترافقها إلى الخِيَاطة، لكنها هناك لا تكاد تتكلم، تجلس شاردة، تحسب ما تبقى معها من نقود، وتترك لحفيدتها، اختيار ما يروقها من تصميمات تعرضها عليها الخِيَاطة من مجلات بصفحات مهترنة.

تعاملت فردوس مع وردة باعتبارها مشروعها الخاص، وسيلتها كي تثبت للأب أنه الخاسر بتخليه عن ابنتها وابنته منها أرادت أن يحسدها إخوتها من أبيها ويتمنوا لو كانوا مكانها ووردة من جانبها أثبتت أنها جديرة بحمل هذه المسؤولية، جديرة بأن تكون محط الأنظار وموضع الحسد.

من غير وردة تجرؤ على الخروج بأثواب شيفون تكشف ذراعها وجزءًا من صدرها؟ من غيرها تقف في الباحة المفتوحة أمام بيتها، تلك الواقعة في المسافة بينه وبين أشجار الليمون المجاورة له، بقميص نوم من السلطان القرمزي أو من الدانتيل المغوي والموحي للمخيلات الجائعة بلمحات من النعيم المتوارى بدلال تحت النسيج المشغول بحذب وشغف؟ اعتبرها الجميع لوعبًا لا يهمها سوى استعراض فنتتها وتأجيج الشهوات بجسدها المنحوت بإتقان. وحده مراد من رأى الطفلة الوجلة المختبئة خلف ألعاب الغواية والبحث عن نظرات الوله والافتتان. وحده من أدرك أن تحرر وردة في التعامل مع جسدها وعدم خجلها منه، لا ينبعان من تباها به وثقة في سلطانه على الآخرين، بل من غفلة عنه وسذاجة مفرطة في فهمه وإجادة لغته السرية.

لم يكن مراد يملأ من المرور بشارعها، والتلكؤ أمام بيتها، على أمل أن يحظى بنظرة منها. لم يصدق عينيه حين ابتمت له للمرة الأولى بات يتبعها كظله، خاصة حين تغادر القرية في مشوار سواء مع فردوس أو بمفردها لم يبدد منها ما يدل على أنها منتبهة لتتبعه لها في مشاويرها، ومع هذا كان وانقًا من كونها لاحظت أنه يلاحقها، فلا يمكن أن تكون كل هذه اللقاءات العابرة مصادفات.

استغل مرة فرصة وجودها وحيدة في طنطا، واقترب منها سائلًا إياها إن كانت تحتاج إلى أي شيء. بدا متلعثمًا كأنما نسي القدرة على الكلام، قال شيئًا عن أنه في طريقه إلى الجامعة، حيث يدرس، ومع أنه كان في الإجازة الصيفية، ومؤكد تدرج ذلك، لم تحرجه، وسايرت كذبته. سارا معًا من شارع إلى آخر، وتحدثا في أشياء كثيرة بلا معنى تقريبًا، إلا أنها بدت مهمة لكليهما على نحوٍ ما.

بعد ذلك، صارت تنقن في طرق لإقناع جدتها بالألا ترافقها إلى المدينة، ومن جانبها لم تعترض فردوس كما توقعت حفيدتها. أوصلتها فقط أَلَّا تتأخر في العودة، وأن تحافظ على نفسها ما استطاعت.

يستعيد مراد، بينما يتنقل بين غرفة المعيشة والمطبخ وغرفة النوم، جولاته مع وردة في طنطا، فيتكثف حنينه إلى تلك الأيام، ويكاد يرى وجه محبوبته مرسومًا على الهواء أمامه. يمد يده إليه راغبًا في تلمسه، فلا يمسُّ إلا الفراغ. ينسبه هذا الانقباض الذي صار يشعر به كلما أبصر دقتر إشراقاته. يتجه إلى غرفة النوم، ويخرجه من درج الكومود. يقصد طاولة السفرة، ويجلس ليكتب كما لو أنه قادر عبر هذا على بعث وردة أمامه من جديد.

شجرة شوك في منتصف الدرب

وجدتني سائرًا في الجهة الشرقية من قريتي، حيث اعتاد بصري التوجه كل صباح لتعقب شروق الشمس، فيما أفق في شرفة بيتنا، وحيث يقع بيت وردة. لم أكن متعبًا، لكنَّ خاطرًا أسرَّ لي بأنني أسير في هذا الطريق منذ الأزل، وعليَّ مواصلة السير فيه حتى الأبد. في سريرتي، أوقن من أنه الدرب نفسه الذي اعتدت قطعه كلما اشتقتُ إلى وردة على أمل أن ألمحها في جلستها المعتادة أمام بيتها، غير أن لا شيء فيه يشبه أيًا من معالم القرية المحفوظة في ذاكرتي مثل وشم جارح ومقبض.

ما أكد لي أنني في تلك البقعة الحبيبة على قلبي لا تزال، أن روح وردة خيمت على المكان، وأحسستُ بطيفها الرهيف كأنما يتبعني، وكدثُ حتى أسمع الوقع المحبب لضحككتها المغوية، تلك الضحكة التي لطالما سلبتني عقلي وأنفاسي.

التقط أنفي أيضًا عبير الليمون، المرتبط في ذهني بالبيت المنقش لوردة وجدتها فردوس، فمن بين أشجار الليمون السخية المجاورة لهذا البيت، لطالما ابتهجتُ بروية معشوقتي وهي تخرج وفي يدها سلة ملأى بثمار ليمون اعتادت جدتها بيعها مع البيض والزبد والجبن القريش لأهل القرية.

على الرغم من ضيق الحال، حافظت العجوز على مستوى معقول من العيش لحفيتها، اختصتها بأفضل الثياب والطعام ودلتها كما يليق بها. رغبة دوماً في تعويضها عن يتمها قدر الإمكان.

يتكثف شذا زهر الليمون، وتتجلى وردة وشعرها الأسود الفاحم يتطاير خلفها، وعلى أطرافه زهور بيضاء تشبه الياسمين. أنتبه إلى أنها تتجاهلني، تخطو بمحاذاتي دون أن تنظر إليّ، بل ربما لا تراني أصلاً. على شفقتها ابتسامه مطمئنة، وبشرتها الجلاسية تفيض نضارةً وشباباً، ونظرها مثبتة على نقطة ثابتة أمامها تتجاوزني، فأقطن إلى طفلة قابضة على يدها اليمنى كأن رقيق بستان مزركش وشعر بني قصير فكرت في أن الطفلة كان من الممكن أن تكون ابنتنا، في ظل ظروف أخرى.

كنت سائراً لا أزال حين اختفت وردة وصغيرتها في طريق جانبي منحدر ومزئّر من الجانبين نباتات حليب الشوك البرية. هممت بأن أتبعهما، لكنني شعرت بجسدي مقيّداً وخطوتي مجبورة على مسار معين ليس بمقدوري أن أحمده. ثم حاصرني نباتات حليب الشوك من كل جانب، راحت تتغزني بأشواكها الحادة، قبل أن أستحيل إلى شجرة شوك ضخمة تتوسط الدرب وتغلقه في وجه الراغبين في اجتيازه.

طائر على شجرة ليمون

على ضفة نهر رأيت وردة تسير مع أختي ليلي، تضحكان وتتناغيان كصديقتين مقربتين. أدهشني هذا، فليلى لم تكن تطيق وردة، ولا أتذكر أنني رأيتها معاً في مكان واحد إلا والتوتر المكتوم رفيقهما الثالث، والشعر يكاد يتطاير من إحداهما صوب الأخرى. لم أفهم قط سر تلك العداوة، وتمنييت دوماً لو تصادقتا. أو من بأن حياتي كانت لتتغير لو أن العلاقة بين أقرب اثنتين إلى قلبي اتسمت بالود.

يلفت نظري أن المياه هنا، أسرع في جرياتها، وعلى الرغم من سيولتها تبدو أشبه بعقيق مائل للخضرة، تنعكس عليه أشعة الشمس، فيزداد بريقه.

«نعم، هذا عقيق مذاب»

أقول لنفسي، فلا يخرج صوتي، لكنني أسمع مراراً وتكراراً في أعماقي.

يقطنني الفضول لمعرفة ما الذي تسر به وردة إلى شقيقتي! أتحمي لها عني؟ وماذا يمكن أن تقول بعد ما جرى مني؟ يؤلمني أن تكون صورتي النهائية في ذهنها سيئة وأوقن من أنها كذلك.

لكن ليلى تضحك بعمق، أكاد أسمع صوت ضحكها التي لطالما أبهجتني. أقول في سري إن أختي لن تضحك أبداً على شيء سلبي عني فجأة، تخفي وردة ويظهر شخص متجهم، تبتسم له ليلي، لكن ملامحه لا تنبسط رداً على ابتسامتها، ومع هذا تقترب منه وتقبض على يده بألفة ومودة يسحبها من يدها، ويسير قريباً جداً من مياه النهر، تتعثر في حجر ما ويختل توازنها، ولا أنتبه إلا وجسدها يرتطم بالماء. يصرخ رفيقها بهستيريا، لكنه لا يقدم على ما هو أبعد من هذا؛ لا يلحق بها محاولاً إنقاذها. فقط يجثو على ركبتيه ويخبط رأسه بكفيه.

أشعر بجسدي مشلولاً، وبأي غير قادر على التدخل لانتشال أختي من النهر. إرادتي مُعبّدة كأن الدور المقسوم لي مجرد الفرجة على مشهد سينمائي يدور أمامي.

يتلاشى الرجل الباكي المولول، وتنبثق وردة مكانه. تجلس على حافة النهر هادئة، ترقب الضفة الأخرى وطيور سمان تحلق فوق الماء، أتذكر أنها لطالما أحببت الطيور، وتمنت أن أعلمها القراءة والكتابة كي تقرأ عنها وتجيد التمييز بين أنواعها. قالت لي مرة إن طائراً يعيش في شجرة الليمون القريبة من شباكها ويوظفها تغريده العذب كل صباح، وترغب في معرفة اسمه. وقتذاك، كنت أضحك من انشغالها بهذا الأمر، وعدتها أن أعلمها حين ننزول وأن أجلب لها كتباً وموسوعات عن الطيور كي تتعرف على جاراتها ذي الصوت الجميل، ولم أف بوعدي كالعادة، لكنني في ما بعد، حين لم تعد هناك فائدة من البكاء على اللين المسكوب، ولم يعد طيف وردة يظلل على حياتي، قرأت كثيراً عن الطيور، وتمنييت لو عرفت أي طائر ذاك الذي لم تكن تملئ من الحديث عنه.

يخيل إليّ أنها تغني. لا أسمع صوت غنائها، فقط أحمس به، وأستحضر صوتها المنغم وهي تغني أغنيات وردة الجزائرية؛ سميتها ومطربتها المفضلة. تمد يدها اليمنى صوب الماء، فتنبعث ليلي منه وتقبض على اليد الممدودة لها. تسحبها وردة نحوها وتجلسها بجوارها. لا تبدو أختي مبتلة على الرغم من خروجها من النهر.

أراها من الخلف؛ وردة تستحيل طائراً لم أر له مثيلاً من قبل، وليلى تنبت على أطرافها براعم، وتستحيل شجرة ليمون ينتشر شذاها في الأجواء. يحلق الطائر بعيداً، ثم يعود ليعيش فوق أحد أغصان الشجرة.

تذكر أنك حملت رواية أطلس الخفاء حصريا من موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل وكتب في خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظرك .

اشتاق مراد إلى الشوارع. حنَّ إلى مشواره اليومي إلى العمل. لم تعد الإشرافات تسحبه إلى جنتها، هجرته تاركاً إياه فريسة لأصوات مزعجة تحاصره أينما اتجه. جماع من همس وصراخ وضحك يشبه الفحيح وضجيج يخلف خدوشاً وخربشات على جدار عقله.

ارتدى ملابسه، وقرر الخروج لا يعرف إلى أين. قال لنفسه إنه سوف يترك خطاه تقوده حيث تريد. أمام البناية التي يقطن بها وقف حائزاً، وفي النهاية استقر على خط سيره المعتاد قبل التقاعد. خطا بنتاقل مؤتسناً بضجة الصباح الخفيفة؛ أبواب المحال التجارية وهي تُفْتَح، نداءات الباعة الجائلين على بضائعهم من خضر وفاكهة، وطنين مكتوم يغلف عالمه.

ابتسم لأطفال عاندين لأبائهم بفول وخبز وجرجير لوجبة الإفطار، فلم يبادلوه أيّ منهم الابتسام. لاحظ الوجوم العالق على الوجوه والأجواء.

لا يدرك كم بقي منعزلاً في شفته! حسَبَ أن سنوات طويلة انقضت عليه في الداخل، وأنه كأهل الكهف، خرج غريباً لاجئاً إلى عالم مُستَغَلَق على فهمه وعصر لا يربطه به شيء.

في المترو انتابه ارتياح غير متوقع بالنظر إلى اختناقه المعتاد من وسيلة المواصلات هذه، على الأقل توجد تفاصيل لا تزال مألوفة له. نزل في محطة الإسعاف، تحامل على نفسه وهو يصعد السلالم. وجد مقعداً رخامياً مُثَبَّتاً في مواجهة صيدلية الإسعاف، فجلس فوقه بجوار امرأة بدينة بعباءة سوداء وطرحه باللون نفسه. تفحصته المرأة بعدائية، فتجاهلها.

انتبه إلى تزايد أعداد كلاب الشوارع. عصر ذهنه، فلم يتذكر أنه سبق له رؤية كلاب ضالة في هذه المنطقة. في الشوارع الجانبية ربما، لكن ليس في شارع رمسيس، تذكر أن اسمه القديم هو «شارع الملكة نازلي»، فشعر بأن هذه المعلومة مهمة، وإن لم يتمكن من القبض على سبب أهميتها ملكٌ غابر وملكة أحدث عهداً منه، تفكَّر في هذا الأمر للحظات، ثم لعن الاثنتين في سره ما دخله هو بالملوك والملكات؟ بل ما دخله بالتاريخ؟ لو كان له خيار في الأمر، لألقى بالتاريخ كله في أقرب مقلب قمامة. أجال البصر حوله، فلمح منفذ بيع لحوم تابعاً للشُرطة، يتزاحم الناس عليه لرخص أسعاره. حَمَنَ أن رائحة اللحم هي ما جذب الكلاب.

انتفض قائماً، وقرر العبور إلى الجهة الأخرى، وفي باله التسكع لبعض الوقت في شارع ٢٦ يوليو والشوارع المتفرعة منه. المسافة من مبنى دار القضاء العالي حتى البناية الضخمة على الناصية الأخرى تحولت إلى منطقة عمل مسورة بحواجز معدنية، فسار في طابور مع زملائه المواطنين بممر لا يتسع عرضه إلا لشخص واحد.

تجاهل إحساساً بالاختناق بدأ يتسلل إليه. عند نقطة معينة كان الهواء معبقاً برائحة بسطرمة بالبيض لطالما ارتبطت عنده بهذه البقعة. يعرف أنها أتية من مطعم صغير في الجوار. لم يجرؤ قط على تجربة أطعمته، ومع هذا ترسخت رائحة البسطرمة تحديداً في ذاكرته حتى أصبحت مرادفاً لهذه المنطقة كلها. يحث الخطي، بلكره السائر خلفه، فلا يتوقف للحظة للنظر إليه. يشم أنفه عبقاً عذائياً في محيطه. تقتحمه رائحة بن قوية، لا يلتفت لليسار صوب منبعها. ترسم في ذهنه مطحنة بُنْ، و«بار» رخامي يجلس إليه زبائن لاحتساء قهوتهم ببطء واستمتاع، يود لو يشاركهم، ثم يظن إلى أنهم غير موجودين إلا في خياله. ينظر أخيراً إلى اليسار، فترى عيناه مطحنة البُنْ والزبائن الجالسين فوق مقاعد مرتفعة مستغرقين في طقسٍ بدا له سحرياً. يدعك عينيه، ومع هذا لا يتلاشى المشهد، ولا يعترف هو بواقعيته. تصله همهمات غاضبة من السائرين خلفه.

«بلاش عطلّة يا أستاذ، عايزين نشوف مشاغلنا»

ينتبه مراد إلى أنه متوقف في مكانه، ركبناه مزعزعتان وجبهته تتصبب عرقاً. يتحامل على نفسه، كي لا يعطل طابور السائرين خلفه. ينتهي الممر الجانبي، بمجرد تجاوزهم منطقة العمل، ويعود إلى الشارع اتساعه، فيرتاح مراد نسبياً. يتظاهر بالفُرجة على واجهات محال الملابس كي يلتقط أنفاسه. يخطر له التوجه صوب شارع شريف، لطالما أحب هذا الشارع دون سببٍ واضح. اعتاد في بداية إقامته في المدينة السير في ٢٦ يوليو، ومنه إلى طلعت حرب وقصر النيل، وكلما وصل إلى تقاطع الأخير مع شريف، شعر بأنه آمن. لكنه، هذه المرة، يقطع الشارع بدايةً من ناصيته مع ٢٦ يوليو.

تلقت بنابة بعينها انتباهه، يثق من أنه كان يتردد عليها كثيراً في الماضي، بها مكاتب عديدة لتصوير الأوراق والطباعة والترجمة المعتمدة. لا يحضره سبب ترده عليها في ما سبق، يشك حتى في هذا حين يخطو داخل البناية ويصعد إلى طابقها الأول. يسير كالمسرنم، كأن ثمة نداءه ما تقود خطاه.

يجد مكتباً لخدمات الإنترنت، فيه زبائن قليلون، ويجواره مركز الثقافة السينمائية التابع لوزارة الثقافة، من داخله انبعث ضجيج منفر دال على مشاجرة، سرعان ما امتدت إلى خارج المقر مع خروج أحد الموظفين، وملاحقة موظف آخر له بسباب، لم يفلح بقية الزملاء في إيقاف طوفاته يتجاهلهم مراد، ويلاحظ باباً بجواره لافتة مكتوب عليها: «رابطة الطلبة الصوماليين»، دون الحاجة لقراءة عبارة: «تأسست في الخمسينيات»، المدونة أسفل اسم الرابطة، يعرف مراد أنها تنتمي إلى زمن عبد الناصر.

«ضيف من عالم آخر غريب!»

يفكر في هذا، ثم سرعان ما يشعر بأنه، هو نفسه، هذا الضيف القادم من عالم مندثر. يغمره شعور بالفقد وبأنه طفل تائه في مولد. من ماضٍ سحيق تحضره ذكري مزعجة؛ كان في الخامسة أو السادسة من عمره، مع أسرته في الليلة الكبيرة بمولد السيد البنوي، الضجيج يغطي على كل شيء: ضحكات أطفال وابتهالات حزانى وطامعين في التوبة والغفران، وأناشيد ذُكر صوفية. أبوه منتشٍ في غمامة الابتهالات والأناشيد، وأمه وسط الجمع مشغولة بلبلى؛ الرضيعة الغافية على حجرها، وهو ركض خلف أطفال آخرين راغياً في اللعب معهم، ثم وجد نفسه وحيداً في زحام المولد وصخبه وقف مرتعباً، لكنه قاوم البكاء كي لا ينتبه أحد إلى كونه ضائعاً منذ صغره، لا يتقن في أحد غرست فيه جدته خديجة بذور الحيلة والحذر إن كان هناك درس نافع علمته إياه، في ذلك الزمن البعيد، فهو أن يظل في مكانه في حالة الضياع. أن يتخبر بقعة ظاهرة ويلتزم بالبقاء فيها إلى أن يعثر أبوه عليه. وهو ما قام به على أفضل نحو. ظلّ واقفاً في ركن بعيد قدر الإمكان عن الزحام. لاحظته الناس واقترب بعضهم منه محاولاً مساعدته، غير أنه لم يشف غليلهم ولم يرد على أسئلتهم المتتالية عن اسمه أو أي شيء يخصه. في النهاية، وجد والده، بعد أن لَفَّ في المولد من أدناه إلى أقصاه، وشكر أبناء الحلال الذين رغبوا في مساعدة ابنه، لكن الابن لم يمنحهم أي فرصة لذلك بصمته وتجاهله إياهم.

هذه النقطة تحديداً، صارت مادة للتندر في العائلة وأصبح مراد مثلاً في صد الفضوليين والتعامل معهم كأنهم هواء. أورثه هذا الحدث خوفاً غريباً من الزحام والصخب، ودفعه إلى تجنب الموالد والاحتفالات ما استطاع.

يهبط درج البناية بنتأفل، يخرج إلى الحر والرطوبة مواصلاً سيره البطيء. يقرر في النهاية الجلوس في مقهى قريب. يختار طولة تطل على الشارع، وفي الحال يكتشف خطأ. ليس من الحكمة في شيء الجلوس هكذا فُرجة لكل مَنْ هَبَّ وَدَبَّ. أين ذهب حذره! يفكر منتبهاً لعيون تكاد تخترقه.

يقرب النادل منه ويسأله متداكياً: الأستاذ أول مرة يشرّفنا؟

ترتعث يدا مراد، ويهمهم بالإيجاب.

«اسم الكريم إيه؟»

يشيح بوجهه بعيداً ولا يرد. يكتفي بطلب قهوة سادة وكوب ماء. يغادره النادل مغتاطاً، فيوقن مراد أن الرجل مُخبر يجمع معلومات عن الرواد المشكوك فيهم. يقول في سره إنه يفهم هذه الأمور جيداً، ويتذكر جبريل. تباغته عبارة سمعها في صباه، في إحدى حلقات برنامج «عالم الحيوان»: «... كما يشمُّ النسر رائحة الموت في الغابة». لا تحضره بداية العبارة، لكنه يدرك سبب تذكره إياها: يلتقط أنفه رائحة المخبرين كما يشمُّ النسر رائحة الموت في الغابة.

إلى طولة بعيدة يجلس رجلان ينظران إليه، ثم يهمسان بما يعجز عن التقاطه، وفي الزاوية يطيل آخر التحديق فيه، قبل أن ينگب على التدوين في دفتر أمامه يفكر مراد في أن الرجل يكتب تقريراً عنه يسأل نفسه كيف لم يظن مبكراً إلى أنه مُستهدف قبل إحالته إلى التقاعد سمع عن وشايات تخفي أشخاصاً من فوق ظهر الأرض، ولم يخطر له قط أن هذا يعنيه. الآن يعرف أن الأمر لا يخص سواه.

تذكرُ ترفيات حُرْم منها بلا مبرر واضح، وأناساً قطعوا صلتهم به فجأة، وهمسات كانت تلاحق خطوه في ممرات الأرشيف وطرقاته، وأحاديث تُبثّر بمجرد وصوله. انتابه الندم لأنه لم يستقص حقيقة الأمر في حينه، ثم عاد ليحمد الله على أنه لم يفعل، فتلك كلها من صنف الأشياء التي «إن تُبذ لكم تسوكم».

لكن ماذا يمكن لهؤلاء أن يأخروا عليه؟! طوال حياته لم يكن له أي نشاط يُذكر، لم يعتد حتى الجلوس في المقاهي والأماكن العامة إلا نادراً. من العمل إلى البيت ومن البيت إلى العمل. باستثناء أغنيات عبد الوهاب التي اعتاد سماعها في أوقات بعينها، كان الصمت هو اللغة الوحيدة المسموعة في شقته، منذ طلاقه. فإشراقاته في معظمها تدور في عوالم انتفت فيها فكرة الصوت أو الكلام، وعقله - مع التدريب المتواصل - نجح في عزل ضجيج الشارع وأصواته.

ما يضايقه مؤخراً أن الأصوات التي باتت تلاحقه باستمرار، تستهزئ بقدرة عقله السابقة على نفي كل ما يهدد طمأنينته إلى الخارج.

قام الرجل المستغرق في الكتابة من مكانه، ووقف على الرصيف لإجراء محادثة هاتفية، إلّا أن هذا لم ينطل على مراد، إذ أقع نفسه أن المكالمة عنه، خاصة حين اختصه المتحدث بنظرة جانبية خاطفة. أيبليغ الرجل عنه؟! أمّن المحتمل أن يُلقى القبض عليه في التو واللحظة؟! تساءل مراد، وقبل أن يخذعه عقله باستسخاف هذا خاطر، جرّ قدميه مبتعداً دون أن يحاسب على قهوته.

تسارعت دقات قلبه، واهتزت ركبته أكثر، رأى نفسه في شارع مدرسته القديمة بببوته المتقشفة وأرضيته الطينية، ثم في طريق مزنر بأشجار بابواب عملاقة، يضيئه قمرٌ منير، قبل أن يحل ظلام تام ويتهاول جسده ليرطم رأسه بحجارة الرصيف.

تجمع المارة حوله لإفاقته، وهرع صاحب محل صغير لتراكيبات العطور حاملاً زجاجة «آزارو» مقلدة، يخ منها بخة خفيفة تحت أنف مراد، وطلب رجلٌ ثانٍ من الآخرين الابتعاد، كي لا يزداد اختناق العجوز فاقد الوعي. أفاق مراد على أصوات متداخلة وهمهمات مشفقة، فلم يدرك أين هو! أول ما خطر له أن الغرباء استباحوا عزلته، ثم انتبه إلى أنه في شارع وليس في جمى شقته.

مد أحد المتحلقين حوله يده في جيبه، والتقط محفظته، ظن مراد أنه سارق، لكنه لم يقوَ على الاعتراض. فنتش الرجل في المحفظة، وخرج بالبطاقة الشخصية. قرأ العنوان المكتوب فيها، وسأل إن كان وقت أحد المتجمهرين يسمح بمرافقته لتوصيل مراد إلى منزله!

تطوع أحدهم، ومعاً، أعاناه على النهوض وأوقفا عربة أجرة عابرة. سيطر عليه شعور بالغرق، أو بالأحرى بالطفو فوق الماء ووجهه لأسفل غارق وحده. كاد الصداق يشق رأسه، وتزاحمت عليه أفكار متسارعة، لم يفلح في القبض على أي منها. بدت ضجيجاً مكتوماً، بلا صوت لكنه يحمل كل إزعاج الضجيج الصاخب.

بينما يصعد به الرجلان السلالم صوب شقته، فُكر مراد في أن إنقاذ العالم مرهون به ومعتمد على قدرته على المقاومة ونشر ما استبصره والتبشير به. ابتهج قلبه لمجرد تفكيره في أن يعرف الآخرون الطريق إلى تلك البقاع الأصلية الواقعة خلف حدود الواقع الضيق.

أمام الباب، حين حاول أحد الرجلين مد يده في جيب مراد لإخراج المفتاح، أبعد هو اليد الغربية بحدة، وفتح بنفسه على الرغم من ارتعاش جسده بكامله. ارتبك في مدخل الشقة، لم يرغب في أن يندس أحد عربنه الخاص، ومع هذا أخبره هاجسٌ خفي أن عدم الترحيب بالمتطفلين على عالمه خطيئة كانت تُغضب أمه لو عرفت بها. لطالما كانت مضيافة ومرحبة بالغرباء وعابري السبيل. تذكر فجأة أن جدته خديجة، على العكس من أمه، لطالما حذرت من الغرباء وعابري السبيل، فلم يعرف ماذا عليه أن يفعل.

حرك يده بتردد كأنما يدعوهما للدخول وهمهم بما لا يفهمه هو نفسه، لكنَّ الرجلين انشغلا بصاحبة البيت التي حضرت لاستطلاع ما يحدث، مع أنها تحرص عادة على تجاهل مراد كما يتجاهلها ارتضى على أقرب مقعد، محاولاً التعاطف عما يسرده الرجلان من أحداث ليس متأكدًا إن كانت وقعت فعلاً أم لا.

«طول عمره براوي ومقطوع من شجرة. زمان كان بيزوره ابن عم عايش في إسكندرية كل كم سنة مرة».

قالت المرأة، فبرقت في ذهن مراد ذكرى عابرة لرفيق طفولته أثناء لعبهما معاً في مرابع الطفولة، وخابله خاطر عن بدايات هوى، سرعان ما قُمع، بين ابن العم وصاحبة البيت. عرض عليها الزواج قبل سنوات، فطلبت منه أن يكون زواجاً عرفياً كي لا تُحرّم من معاش زوجها الراحل، فغضب ابن العم العاشق، وانتهت قصة الحب سريعاً كما بدأت، ليرتاح مراد من عبء مشاهدة شخصين تنظلي عليهما تلك الخدعة السرمدية. مع الوقت، بات يشعر بأن الحب الرومانسي أكثر المشاعر سخافة، ومع هذا أو ربما بسببه، تذهله قدرة تلك العاطفة الهوجاء على تحويل أشد الناس تعقلاً إلى سفهاء وحمقى.

لا يعني هذا أنه قد اعتبر قربه هذا حكيمًا يومًا، هو بالأحرى لا يكاد يتذكر وجهه، ولا يعرف لماذا كَفَّ عن زيارته المتباعدة له! أخذت هذا بعد انتهاء علاقته بصاحبة البيت أم أنه داوم على الحضور على الرغم من كل شيء! لم يعد لدى مراد إجابات عن أي سؤال. يملك فقط جبالاً من أسئلة لا تطمع في أجوبة.

عاد إلى التفكير في حماقة الحب والمحبين، وقال لنفسه إنه لو لم يقع في غرام وردة، لكانت حياته وحياتها أسعد وأسهل. لماذا كان غرّاً إلى هذه الدرجة؟ سؤال آخر لا يملك إجابة له.

خرج الجميع وانغلق الباب خلفهم، خفتت أصواتهم رويداً، وانسحب هو إلى غرفته حيث تمدد فوق السرير، غير قادر على تحديد إن كان ما مرَّ به منذ الصباح أضغاث أحلام أم كوابيس واقع!

نام لثلاث ساعات، ثم استيقظ بصداق يكاد يشق رأسه. اشتاق إلى أوقاته القديمة الخالية من الصداق والإرهاق وانقطاع النَّفس. لم يعد بإمكانه تخيّل مثل هذه الحياة، وساءه أنه كالأخرين، لا ينتبه إلى النّعمة إلا بعد زوالها.

على غير عادته انتهى أن يأكل طعاماً دسماً يُذكره بالأيام الخوالي، لكن مطبخه ليس فيه سوى بواقي بانسة من مأكله اليومي. ومع هذا دخل يبحث، متمنياً وجود ما يسره. في الحقيقة لم يكن الأمر دسماً، إذ يتذكر أن صاحبة البيت في غمرة الضجة المصاحبة لعودته برفقة الغربيين، ذهبت إلى شقتها، ورجعت بطبقٍ مغطى بورق قصدير. نسي هذه التفصيلة بمجرد حدوثها، لكنه صحا من نومه وهي حاضرة كواحة نضرة في صحراء ذاكرته.

طريق الماء

أجد نفسي سائراً بمحاذاة بحري بلا نهاية؛ الزرقة تغمر كل شيء ورائحة اليود تُعَبِّق الجو إلى جوارى بمشي شاب أتعرف فيه على بطرس؛ زميلي في المدرسة الثانوية يبدو عازماً على القيام بأمر جليل أسأله عن وجهته، فيرد بأنه ذاهب في طريق البحر لتوصيل رسالة إلى قوم الأعماق. أندھش وأسأل مجدداً: أي قوم هؤلاء؟ وكيف السبيل إليهم؟ فتأثني الإجابة من صديقي وقد نفذ صبره: أقصد الناجين، يمكن لمن يرغب الالتحاق بهم، والطريق إليهم يبدأ

بالسير على الماء. وقبل أن أستفسر استفسارًا إضافيًا انطلق بطرس صوب البحر، وخطا على الماء. خُيِّل إليّ أنه يقول: لم أعد ضعيف الإيمان، سوف أتق ولن أخاف، سوف لن أرتجي النجاة. لكن حين أصحّت السمع لم أجد رفيقي ينطق بأي شيء رأيتَه فقط بحثُ الخطي بتصميم دون الالتفات خلفه وفتتُ على اليابسة أتابعه، ورغبتُ في أن أناديه طالبًا منه العودة، لكن صوتي انحبس وؤنّدت كلماتي بداخلي راح جسد بطرس يتصاعل بابتعاده التدريجي، وشعرتُ بالهم وأسى لا طاقة لي بتحملهما، ثم هبّت ريحٌ عاصفة، عثّمت الرؤية لبرهة، وحين هدأت لم يكن هناك أثر لبطرس. اصطخب الموج ثم استكأن، وحلقت طيورٌ بيضاء، لاحصر لها، قبل أن تحط على الماء. مع استكأنها التالية على الطيران، انتقلت سكينتها إلى قلبي، فغمرتني خُفّة خلّفت في نفسي سعادة ممزوجة بالأسى.

مدن الأعماق

ثمة نهر يكاد ماؤه يبدو ساكنًا كأنما لم يعرف الانسياب والجريان من قبل، وعلى ضفته البعيدة بساتين كروم وبرتقال، أما هذه الضفة فيحتلها بستان موز لا يعرف الناظر إليه بدايته من نهايته، وتصافح مياهها الرقاقة الأغصان المرنة لأشجار صفصاف معمرة.

يركض المراهق الذي كنته بين أشجار الموز، محاولًا عبثًا تفادي أوراها العريضة. تقودني صرخة وشهقة أخيرة إلى الوجهة الصحيحة، لكنني أبلغها متأخرًا. ألمح رأس بطرس يرتفع فوق سطح الماء بحثًا عن شهقة الحياة، ثم سرعان ما يغطس لأسفل كأن قوة هائلة تجذبه للغرق. يتحرك الماء في موضعه في دوامة من دوائر متداخلة، قبل أن يعود للسكون. أصرخ وألقي بنفسي في الماء في محاولة بائسة لإنقاذ صديقي وزميل دراستي، تهتز الأغصان الصفصاف الملاصقة للنهر، وتغيب الشمس مؤقتًا خلف عيمة داكنة، فيبدو العالم كأنما صُفّف عليّ أنا السابح باستماتة وعلى بطرس الغارق.

أغطس كاتبًا تنفسي لثوانٍ، قبل أن أجبر على رفع رأسي مرة أخرى دون أن أجد لبطرس أثرًا، كأنما قد ذاب في المياه. شيئًا فشيئًا يحضر آخرون للمساعدة في عملية البحث. أغادر النهر الساكن، وأسير بين أشجار الموز لأجد كتاب كيمياء الصف الثالث الثانوي الذي كان بطرس يذكر فيه قبل قليل. أحمل الكتاب وأتصفح، فتنبسط أمامي أماكن ومدن عامرة أسفل الماء. ليست مدناً غارقة، بل مشيدة في الأعماق؛ بناها أسلاف وجدوا أنفسهم مغمورين بالماء دون سابق إنذار، وكان عليهم أن يتكيفوا مع عالم لم يألوه من قبل. غرقوا في البداية، فتحررت أرواحهم، وتحررها استقاوا على حقيقة أنهم قطعوا أول خطوة على طريق التكيف مع العيش في الأعماق، ففي الغرق نجاة.

على الرغم من انبهارني بما يترأى لي بين دفعتي كتاب، لطالما بدا لي مستغلقًا ومضجّرًا في السابق، ألقينُ به بعيدًا. خفتُ من إغواء مدن ويقاع الأعماق لي. خَمَنْتُ أنها ما أعوى صديقي بطرس؛ ابن قس كنيسة السيدة رقيقة، وأغراه بالغرق، أنها ما صور لي، بمجرد النظر إليها، أن الالتحام بالماء، الطريق الوحيد الموصل لها.

كنتُ قد تركتُ صديقي، على ضفة النهر منكفئًا على الكتاب، ودخلتُ البستان المملوك لعائلتي لإحضار بعض الموز المدفون في كومة تبن والمتروك هناك كي يطيب وينضج في حرارتها. لم أكن قد قطعْتُ سوى خطوات قليلة حين خطفت ضجة بالخارج انتباهي، قبل أن أستوعب أن ما سمعته لتوه كان صرخة متشرجة بصوت بطرس الذي اعتاد زيارتي من وقت لآخر، لنستذكر معًا دروسنا على النيل.

على الرغم من محاولات البحث المستميتة، لم يُعثر على الغريق، ولمحتُ سطح النهر يستحيل كريستالًا مصقولًا وينغلق على من فيه، فيما أقف أنا على الشاطئ محاذرًا أن ألق بالماء في تحوله. أنفصل عن عالم تجلياتي، وأجد نفسي في المسافة الفاصلة بينها وبين الواقع، فأتذكر أنه كان لدي صديق اسمه بطرس في المرحلة الثانوية، لكنه لم يغرق، فلا أعرف من أين جاءتني هذه الإشارة الأشبه بالذكرى منها باستبصاراتي كما ألفها.

تذكر أنك حملت رواية أطلس الخفاء حصريا من موقع مكتبة بيت الحصريّات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة ولتحصيل المزيد ادخل على جوجل واكتب في خانة البحث مكتبة بيت الحصريّات هنظرك.

* * * * *

8

صباح جديد يتسلل إلى عالم مراد، الجالس إلى طاولة السفرّة ساهمًا. ينسكب ضوء النهار تدريجيًا في الشقة، فيما يفكر هو في أنه صار يفضّل المنطقة المغيشة بين النور والعتمة، فالضوء الصريح يؤدي نفسه وعينيه، وبُهمّة الليل تعبت باتزان، أما المسافة بينهما، فتتيح له الطفو في حالة من الوَحْم والخدر المُسكّنين للألمة ومخاوفه.

يفتح دفتره الرمادي، يتأمل الحروف والكلمات، فيُهبأ إليه أنها مكتوبة بلغة مستغلقة على فهمه. يحاول تذكّر ما تعنيه كل كلمة، فلا يفلح. يجرب تحويل الحروف إلى أصوات، فتخذله قدراته. يتذكر تبهه وتلغمه في بدايات تعلمه القراءة بكُتاب جدته خديجة. كان ينظر إلى الحروف المُدوّنة على اللوح، فيشعر بأنه فقد القدرة على الكلام. تنطق جدته كل حرف أكثر من مرة، وتطلب منه أن يكرر وراءها. يفعل ما تأمره به، لكن ما إن تستدير إلى طفل آخر، حتى يجد ذهنه صفحة فارغة.

حين يست منه، أرسلته إلى كُتَّاب منافسها في القرية المجاورة، ظلًّا منها أن صلة القرابة وتدلُّبها المبالغ فيه له منذ مولده هما ما يمنع تعلمه منها. هناك أيضًا واصل تلغمه وارتبائه، وإن بدرجة أقل، لأن خوفه من الشيخ عبد الرحمن كان يحفزه على فعل كل ما يستطيع للهرب من عقابه.

ينظر له الشيخ نظرة زاجرة، فيستظهر مراد من الألف إلى الصاد. يبدو الخوف له محفَّرًا سحريًّا، يقبض على يده ويأخذه إلى أرض جديدة يصبح فيها حتى لأشد الرسوم عبثية معنى. إلى تلك اللحظة، مثلت له الأبجدية مجرد رسوم، وظلَّت كذلك لفترة بعد إجادته القراءة والكتابة وحفظه للقرآن. لطلما مال عقله إلى تحويل كل شيء إلى صور وأشكال ورموز، حتى ذاكرته بصرية بالأساس؛ تزوره الذكريات منبثقة من مشاهد ومناظر غابرة، ثم سرعان ما تكتسي بمذاقات وروائح ومشاعر وأصوات معينة.

يحدث أكثر في الإشرافات المدوَّنة في دفتره، فيكاد لا يتذكر متى دونها ولا يعرف كيف ولماذا تجلَّت لشخصه الضعيف! يزججه ألم خافت ولكن متواصل في صدره، فيتشاغل عنه بالتثبث بقشَّة الذكرى. يستعيد كُتَّاب الشيخ عبد الرحمن، قغمز روحه نسمة منعشة، لا تتبعث طبعًا من شيء ذي صلة بالحفظ والتعلم أو التوجس والارتباك، إنما من استحضار السَّمْت المُلوكي لهناء؛ ابنة الشيخ، في جلستها الصباحية في شرفة بيتهم تشرب شايًا بالحليب وتقرأ في مجلات الموضة والمنوعات. يجلس هو بجوار زملائه على الحصير ناظرًا إلى أستاذه المتربع فوق مقعد عريض مغطى بمفرش ملون، ومختلسًا النظر، من وقتٍ لآخر، إلى الجمال الغافل عن ما حوله والمنغمس في تصفح مجلات بأوراق مصقولة. تملأ شمس الضحى الشرفة، فيشعر كأن هناء تحول إلى كتلة من ضياء. اعتادت أن تخرج من عالمها للوانٍ تنتظر فيها نحو والدها وتلاميذه في جلستهم، بفناء البيت بجوار شجرة اللبخ، تحت السَّقِيَّة المَجْهَّزة كيفما اتفق، والمُعْرَشة بعنب تتدلى عناقيده جاذبة طيورًا تنقر حباتها في الضحى أو نحلاً يطنُّ حولها في الظهيرات الحارة. يتذكر مراد كيف كان عالمه يشرق إن حدثت وابتسمت له هناء أو نادى عليه كي يشترى لها شيئًا من البقال في أول الشارع أو كي يتسلق أعمدة السَّقِيَّة ويحف فوق عروق سقفاها كي يطف لها أطيب عنقود عنب، وقد تملكه الفخر لأنها اصطفتها من بين الجميع للقيام بهذه المهمة الجليلة، المرة الوحيدة التي ودَّ فيها لو انشقت الأرض وابتلعتها، كانت حين كاد يقبض على حرياء بدلًا من عنقود عنب، ولولا أنه انتبه في اللحظة الأخيرة إلى أن الكتلة ذات الخضرة المشوية بالصُفرة ليست سوى ذلك الكائن المتلون الذي لطلما حذره أهله منه، لكان قد لُدغ منها. انتفض وقفز من فوق السَّقِيَّة غير عابئ بما قد يحدث لعظامه الغضة، وحين ارتطم بالأرض لم يتمالك نفسه، وانخرط في بكاء يليق بالطفل الذي كانه. ركضت هناء من جلستها إليه، اطمأنت على أنه لم تُكسر ساقه، ومسحت دموعه، قبل أن تساعد على النهوض وتحنى لاحتضانه لبرهة، اقترب بعدها ملمس الساتان بالسعادة والنعيم في ذاكرته للأبد. كان ثوبها من الساتان الأخضر الزيتوني؛ وهكذا ظلَّ كلما أغمض عينيه هانئًا في لحظات اطمئنانه المتباعدة، تلون فضاء مخيلته بأخضر الزيتون الممزوج بنعومة الساتان.

قال لجدته خديجة مرَّة إنه سيتزوج من ابنة الشيخ عبد الرحمن عندما يكبر، فضحكت ووعدهت بأن تزوجها له إن حفظ القرآن بسرعة. صدقها غير آبه بفارق السن بينه وبين هناء. في ذلك الوقت، كان يظن أنها ستظل كما هي حتى يراكم سنواته ويلحق بها. بعد خمسة أعوام من وعد جدته الضاحك له، اصطحبته معها لفرح هناء. كان قد حفظ القرآن تلاوةً وتجويدًا وتوقف عن التردد على كُتَّاب أبيها، واقترب من نهاية المرحلة الابتدائية في المدرسة. بدت له العروس جميلة، ككل العرائس، لكنَّ مساحيق التجميل خصمت شيئًا من ذلك البهاء القديم المرتبط في ذهنه بفتاة أحلام سنواته الأولى، تلك التي كانت تحيل بسمة منها أو تربيته على الرأس يومه من البؤس إلى السعد.

عندما أحبَّ ورده لاحقًا، حُيِّل إليه أنها تشبه هناء على نحو ما. كانت أبعد ما تكون عنها من ناحية لون البشرة والشعر والملامح، لكن جمع بينهما هذا الأثر السحري والغامض الذي يخلفه الجمال في النفوس. كان ينظر إلى ورده فيمتزج سروره ولعه بأسى لا سبيل إلى فهمه أو تفسيره لطلما رغب في أن يكون إياها، أن يرى كل شيء حوله بعينيها، وألَّا يكون له وجود أو كيان خارجها حلم بالاتحاد بها بلا أمل في الانفصام عنها أبدًا، وتعدَّب من إدراكه بأن حلمه هذا ضربٌ من المُحال، حتى لو تزوجها وعاشا معًا إلى آخر يوم في حياته.

لطلما شعر، في حضورها، بأنه في الجَنَّة، لكنها كانت دومًا جَنَّة منقوصة ومقيدة. اعتاد أن يتكلم بلا انقطاع، كأن في ورده تعويذة قادرة على حل عقدة لسانه وإذابة ميله الفطري للصمت، ومع هذا ظل عاجزًا عن البوح بكل ما يعتل في نفسه نحوها.

كان يشتهيها اشتهاً عرف معه أنه لن يرتوي منها أبدًا أدرك على نحو مبهم أن شوقه لها لن يهدأ أو ينطفئ، غير أن ما زاد من وجعه الغامض تيقُّنه من أنه غير جدير بها، حتى لو أمنت عائلته بأنها أقل منه على كل المستويات.

يستيقظ من نومه مدهولًا، ومتسانلًا عن سر أحلامه المستجدة، وعن كيف عادت ورده إلى حياته بهذا الوضوح والإلاح ولو عبر هذا الباب الخلفي! يلفت نظره أن الماء والفرق يمتدان من أرض تجلياته ويقظته إلى جغرافيا نومه. يجلس كل صباح، إلى طاولة السُفرة شارداً، لما لا يقل عن ساعتين، ثم يتحامل على نفسه لتحضير فطور سريع يجبر نفسه على أكله كي يتمكن من تناول قهوته.

والآن، فيما يجلس محاولاً تجاهل انتشار ضوء النهار في الشقة، يأتيه صوت جدته خديجة مرددًا جملتها الأثيرة، في كلامها معه، وهي راقية البال:
«المعجزات تحدث فقط لمن يؤمن بها».

تلح عليه جملة جدته خديجة من جديد: «المعجزات تحدث فقط لمن يؤمن بها».

حتى حين تاه عقلها، ولم تعد قادرة على تمييز من تتعامل معهم، وصارت مجرد كومة عظام تجلس فوق فروة خروف قديمة تتأمل الشارع عبر الباب الموارب، كانت تتعرف عليه وحده حين يجلس بجوارها، خلال زيارته للقريبة. يتحدث إليها، فتجيبه، كما لو كانت جدته مثلما يتذكرها في سنوات طفولته وصباه وشبابه. تسأله عن أخباره، وتحكي له شيئاً ما عن وردة. كانت تصر، لسبب لا يفهمه، على الإشارة إليها، فيتعجب كيف تتذكرها وتتذكر حبها لها، في وقت كفت فيه عن التعرف على بقية أفراد أسرتها. اعتاد أن يرد عليها كيفما اتفق، متجاهلاً لما يعتصر قلبه، وعندما تخبره بأنها ستنادي أخته ليلى كي تجهز له الغداء، ينتبه إلى أن عقلها سافر من جديد إلى أرض التيه والتجوال على الدروب.

تذكر أنك حملت رواية أطلس الخفاء حصرياً من موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب في خانة البحث مكتبة بيت الحصريات .

* * * * *

9

يرقد مراد على فراش غير مرتب في غرفة يراها مربعة بشكل بزعه. يفكر لماذا لا تكون الغرفة مثلثة أو دائرية! المثلث محكوم بأضلاعه الثلاثة، ولن يُشعره بالغبرة مثل المربع والمستطيل، لأنه يعيش الرقم ثلاثة، أما الدائرة فنحن لخلوها من الزوايا والحواف الحادة.

يتمنى فجأة لو عاش حياته كلها في باطن دائرة. يؤلمه عموده الفقري، فيتحامل على نفسه ليقوم من رقدته.

يجلس على المقعد المجاور للنافذة، فلا يبصر أعصاب الجهنمية المثقلة بالزهور، تتبدى له بدلاً منها حديقة. يراقبها، فيلفت نظره جسداً متكوماً على مقعد مثبت أسفل شجرة، زهورها متساقطة على الأرضية وعلى الرجل النائم. يضايقه هذا. يرغب في إزاحة الزهرة المستقرة على طرف المقعد، بحيث تكفي حركة واحدة غير محسوبة لإيقاعها. لطالما أزعه رؤية أي شيء على الحافة أو أي شكل غير متناسق على نحو صارم. أبعد النائم يده عن وجهه، فخمّن مراد أنه في أواسط أربعينياته. شيء ما في شفتيه المزمومتين وجبهته المقطبة أشعر رائيه بأن ثمة ما يزعج نومته على الرغم من خضوعه التام لسلطانه.

يدقق مراد في ملامحه، فيضاعف هذا من ضيقه. شعورٌ مبهّمٌ بالانقباض يسيطر عليه. تظهر امرأة بثياب البيت فجأة وتتبعها رجل يوقظ الغافي ويسحبه خلفه. لا يعترض ولا تبدر منه كلمة واحدة. يتلفت حوله فقط مذهولاً، تتوقف نظراته قليلاً عند المرأة الحريصة على الوقوف على مبعده. يدوس الزهور البرتقالية وهو يتحرك ببطء خلف الرجل.

تهب ريح خفيفة تُحرك أعصاب الشجرة، فيطير غراب مبتعداً، وينتبه مراد إلى أن الشجرة تكاد تخلو من الأوراق، ومع هذا تقف صامدة في البرد، محملة بعشرات الزهور اليباعة. يتذكر أنه رأى واحدة تشبهها من قبل، يغيب عنه أين صادفته! أكان يلمح قمتها من على كوبري ٦ أكتوبر، فوق النادي الأهلي؟ أم أنها كانت في حديقة الأورمان؟!

لا يهتم بالإجابة. يمد رأسه ويلصق جبهته بزجاج النافذة يكاد يبرد الخارج ينتقل إلى عظامه، فيحن إلى إحساس الاستيقاظ في شفتيه، وإلى طقوس إبطاره وإعداد قهوته. صار يكره الطعام. لا يكاد يأكل شيئاً. ينظر إلى السور العالي الممتد خلف الشجرة والمحيط بحديقة المبنى، تلتفت نظره كوة فيه. يتساءل عمّا قد تتيحه من مناظر لمن يتلصص على الخارج عبرها؟! هل ستمنحه المنظر نفسه المترائي له هو من غرفته في الدور الثالث؟!

يقول بصوت عالٍ: «قد يرى المتلصص الشارع والفضاء الفاصل بيننا وبين المدرسة الواقعة في الجهة الأخرى، لكن سورها سيمنعه من رؤية الجزء البادي لي من مرمى كرة القدم. يتيح لي النظر من أعلى إمكانية أكبر للرؤية. ننظر إلى المشهد نفسه ويرى كل منا شيئاً مختلفاً وفقاً لموقعه. يمنحني موقعي رؤية أشمل، لكن موقع المتلصص سيجود عليه بتفاصيل عسيرة عليّ. أرى أشجار المانجو - في الجهة الأخرى من السور - كاملة، لكنه يرى جذوعها بتفصيل أكبر.»

بصمت مراد ويلتفت حوله. لا يعرف عمّن يتحدث! لا أحد يختلس النظر من كوة السور. يشعر بالدوار. ثم يتكاثف الضباب أمامه ويغيم العالم. تخبو الشجرة المزينة بالزهور وتتلاشى أشجار المانجو، ويتبدى له بيت قديم محاط بحديقة. يدعك عينيه، ويظن أنه يتقرج على مسلسل تاريخي. لم ير هذا النمط المعماري في القاهرة من قبل، ومع هذا يشعر بألفة تجاه المبنى وحديقته، خاصة حين يهز النسيم شجيرات الياسمين والفاكهة.

يلاحظ قمرًا يتوسط السماء، يغيبه الغيم حيناً ويعاود الظهور حيناً آخر. لا يفهم كيف تسارع الوقت من الصباح إلى المساء هكذا؟! ثم ينسيه الأنين هذا الخطر. أنين خافت يتصاعد رويداً، ثم يخفت مجدداً، ينبعث من الداخل. يُخيل إلى مراد أن الأنين ينبثق منه ومدموغ بصوته ونبرته.

تتكاثر عليه الأوجاع، يشعر بنيران تندلع في جوفه. ترتفع حرارته ويضيق تنفسه. وتتغرر مسامير لامرئية في رنتيه.

يعرف أن ما بدأ يختبره فجأة مرتبط بالأنين المنبعث من البيت، ويكاد يرى نفسه شيئاً راقداً فوق فراش مكسو بالسندس والاستبرق، يعاني سكرات الموت وحده. تتجسد له غرفة موسومة بأبيات الثراء تحتضن لحظاته الأخيرة، فيما هو في برزخ بين عالمين، كلاهما ثقيل الوطأة؛ أحدهما مفروش بكسر الزجاج والآخر مغمور بشوك ينغرس في القلب مباشرةً.

يشعر بوجود رفقته، يحاول فتح عينيه فيفاجأ بغمامة صفراء تمنع عنه وضوح الرؤية. يستشعر خطأً يقترب منه، ثم يسكن كل شيء. تنغرز المسامير مجدداً في صدره ويهيباً له أن رأسه يغلي من فرط السخونة. يحدس بحركة قريبة من جديد. تنضغط على وجهه يد قوية بقماش رطبة. لا يتأكد إن كانت يدًا حقيقية أم لا، لكن روحه تنسحب منه، يكاد يشعر بمفارقتها لجسده. يتضاعف الألم ويستحيل التنفس، فيما يمنعه وهنه من الصراخ أو حتى الأنين. يسكن في النهاية. تشمله طمأنينة لطالما افتقدتها. يتذكر صندوقاً كان بجواره، ثم تخبو الذاكرة بدورها. يغرق في ظلام تام.

ينتفض مراد من جلسته مذعوراً. لا حديقة ولا ليل ولا ظلام ولا بيت قديم في الجوار. بجر المقعد خلفه مستأنساً بضجيج. يعيده إلى مكانه السابق، ويصعد للرقاد على السرير مجدداً.

كم يشتاق إلى نعيم العيش في شقته، محاطاً بدفاتره وأشياءه الأليفة. يشتاق حتى إلى كائناته غير المرئية وحضورها غير الملحوظ لغيره في الغرف والمطبخ والحمام. يسأل نفسه: أين غابت؟ ولماذا لم ترافقه إلى هنا؟

يتذكر فجأة النائم على المقعد أسفل الشجرة المزهرة الخالية من الأوراق، يود لو تحامل على نفسه واتجه صوب النافذة لمعاينة مكانه الفارغ منه، لكن ذقات قلب مراد المتسارعة وألم مفاصله يجعلان الفكرة محض حماقة.

يخطر له أنه لمح الرجل من قبل، ربما تقاطعت خطاهما في شارع ما، أو صادف أحدهما الآخر في أحد ممرات حديقة عامة، حيث اعتاد مراد أن يتشمس في الفترة التي تلت تقاعده مباشرة. ربما التقت أعينهما للحظات، ثم أشاح الرجل الأصغر بوجهه بعيداً وهو يداري ارتياكه.

تمر في باله أشجار المانجو وملعب كرة القدم في فناء المدرسة التي تراءت له، قبل قليل، في مواجهة نافذة غرفته، فيتذكر مدرسته الإعدادية، في القرية المجاورة لقرينته. يستدعي مشواره اليومي إليها ومنها، فتغيب الكثير من تفاصيل دربه، وتلمع نجمة واحدة في سماء ماضيه المعتمة: ذات صباح بارد وقف أمام «الكانتين» يلتهم ساندويتش فول بالطحينة والليمون والكمون لم يتذوق في حياته طعاماً أشهى منه.

أقنعت بقية الجيران بأن وجوده بينهم صار خطراً عليهم وعلى صغارهم. بعد أن كانوا قد نسوه تقريباً - في ظل توقعه عن الخروج إلا للشديد القوي - عاودوا التطفل على حياته. طرقتوا بابه واحداً بعد الآخر، كل منهم بحجة مختلفة. يكلمونه وعيونهم تتفحص وجهه أو تتجول للإلمام بتفاصيل الشقة خلفه، فيما هو يقبض على الباب كي يحافظ عليه موارباً، لا يكشف عن مكنون الداخل.

قبل أن ينشغل عنه الجميع بشؤونهم الخاصة، اتصلت صاحبة البيت بابن عمه المقيم في الإسكندرية محاولةً إقناعه بحجزه في مصحة للأمراض العقلية. توقع مراد أن تقدم على هذه الخطوة من نظرتها له يوم عاد به الغريبان آخر مرة غادر فيها شقته. أخبرها أنه تهالك في الشارع، ولم يشف غليلهما حين سألاه عن اسمه وعنوانه، فاضطرا لإخراج بطاقة هويته من جيبه. كاذبان ككل من أوقعه حظه العائر في طريقهم خلال السنوات الأخيرة.

يدرك مراد أن المرأة موقنة من أنه من حرّض ابن عمه على رفض فكرة الزواج العرفي ودفعه إلى قطع علاقته بها، لكنه يحمدهم لأنهم لم يتمكنوا من حث رفيق طفولته على أن يزوج به في مصحة هي إلى السجن أقرب. كان متأففاً عندما زاره في شقته لإخباره أن لا وقت لديه كي يضيعه في مهاترات وزيارات دورية للقاهرة. يتجهم طلب منه أن «يداري أمور» وأن يتصرف كالآخرين، فلم يعرف مراد ماذا عليه أن يفعل بالضبط. لأول مرة تنتابه السعادة لأن شقيقته ليلي لم تتزوج من ابن عمها هذا.

«لا ريب أنها ما أغرقت نفسها في النيل إلا للهرب من هذه الزيجة!»

يباغته هذا خاطر، فيهب رأسه راضياً دون ذرة واحدة دون تأنيب الضمير أو الاسف .

تذكر أنك حملت رواية أطلس الخفاء حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب في خانة البحث مكتبة بيت الحصريات .

يغمض مراد عينيه فيرى طيورًا بيضاء تلتقط زهور ياسمين من شجيراتهما، وتحملها في مناقيرها، ثم تحلق في سموات غير مألوفة له. تبعد حتى تكاد تغيب عن ناظره، ثم سرعان ما تعود أسرابها وتطلق سراح الياسمين ليتطاير في الهواء، قبل أن تحط على أشجار ليمون مزهرة، تجاور بيئًا متشققًا مطليًا بجير أصفر باهت.

يسعى إلى اختراق خميلة الليمون بعيني خياله، فنترأى له شابة سمراء بعينين عسليتين وشعرًا أنوسى طويل، ترتدي قميص نوم شفافًا، يزيد من ألق بشرتها الخلاسية. ترنو نحو الطيور الملتجئة إلى أشجارها وترسم على شفيتها المكتنزتين بسمه حلوة. يخطر له أنه يعرف التماعه العينين هذه، وتذوق هاتين الشفتين وروى عطشه يومًا برضاب هذا الفم الشهى، لكن التفاصيل غائبة عنه عصية على ذاكرته. يوقن فقط أن روحه تألف هذه الروح وتحن إليها.

تداهمه فجأة ذكرى تبدو منبئة عن أي سياق مفهوم له، لكنه يهجم بأنها تخص حكاية قديمة له مع هذه الجميلة، إذ يتجلى أمامه وجهها ذو السلطان على قلبه، مع تغيير يكمن في اختفاء الابتسامة واحتلال الحزن للعنين بعد أن انطأ بريقهما الأخاذ. رآها واجمة، تكتم دموعها، ورأى نفسه شابًا يدير لها ظهره، ويغادر القرية بلا وداع أخير. انسحب دون شرح أو إيضاح، على عادة الجبناء. اكتفى بشجاره مع أمه وجذته وقطيعته لهما على أمل أن ترضخا لرغبته في الزواج من محبوبته. لم تعلم هي شيئًا عن طريقته الطفولية في الضغط على أهله، لم يصلها منه سوى الصمت والغياب، في حين أنته أخبارها تبعًا؛ العيوس الذي صار لصيقًا بها، اقتراب خطبتها لأحد أقرباء جدتها، ثم زواجها منه في حفل رُتب على عجل. حين عاد إلى كنف العائلة، تجنبت أمه أي إشارة إلى وردة، لكن جدته خديجة كانت تتحدث عنها، من وقت لآخر، بعفوية مدعاة، مادحة جمالها الذي نضح وطاب مع الزواج، أو متغزلة في طفلتها الصغيرة حين اصطحبت معها لأول مرة إلى القرية، وهي في عمر السنين. لم تعد وردة، في نظر الجدّة خديجة، تلك الفتاة الفقيرة الأمية التي تشكل خطرًا على مستقبل حفيدها. أما أمه، فكانت غارقة في تلك الفترة في أحزانها على هروب ليلي وزواجها من غريب لا يعرف أحد أصله أو فصله. من حسن حظه وسونه في آن، أنه لم يصادف وردة، بعد زواجها، قط خلال زيارته المتباعدة لمنزل عائلته.

مثلما برقت هذه التفاصيل في السماء الغائمة لذاكرته بلا مقدمات، استحال الغيم اعتامًا فجأة، لتضمحل الوجوه التي زارته لتوها، ويغيب كل شيء يخصها. يعود مراد صفحة بيضاء؛ جنينًا غافلًا عن ذاته وهويته، جاهلاً بما سبق واكتسب من معارف، وبما سبق وارتكب ما خطايا. يشعر بخفة مباغته. تطير به روحه إلى أرض أبعد وزمنٍ غابر. يجد نفسه وحيدًا على فراش أفخم، يكاد يشعر بنعومة الديباج والاستبرق، غير أن الألم يمنعه من الاستمتاع بهذا الملمس المحبب إلى نفسه. يعرف أنه وحده تمامًا، فالبيت الذي كان عامرًا حتى الأمس، صنف عليه. غادره الجميع ظنًا منهم أنه مريض بالطاعون وخوفًا من احتمالية أن ينتقل المرض المستشري في المدينة إليهم.

لا يعرف إلى أين ذهبوا، ولا يهيمه الأمر. يفكر في الحديقة الغناء للبيت، يستعيد منظر أشجار الأترج والإجاص والنخيل والأعاب، ويستحضر عبير الياسمين في امتزاجه مع شذا الريحان والورد الجوري والنرجس والأس، فلا يواسيه هذا، يتمنى لو يصل إلى خاتمه سريعًا عوضًا عن هذا الألم الذي يفتك بأحشائه.

تذكر أنك حملت رواية أطلس الخفاء حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب في خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك .

يبتهل في سره إلى الله أن يخلصه من العذاب، يغمض عينيه ويواصل تأوّه، يغيب عن الوعي لبرهة، ثم يستفيق شاعرًا بوجود شخص آخر في الغرفة، يخيل إليه أن أنفاسًا مضطربة لاهثة تنتهي إلى سمعه، وأن هناك من يجلس على طرف التخت. هل عاد أحد الخدم للاعتناء به؟! يسأل نفسه دون أن يكثرث بالجواب.

يتمنى فقط لو تخمد النيران المشتعلة في رأسه وأمعانه. يحس بخضوات تقترب منه، ثم كأن يبدأ ما تضغط بخرقه هل عاد أحد الخدم للاعتناء به؟! يسأل نفسه دون أن يكثرث بالجواب.

يتمنى فقط لو تخمد النيران المشتعلة في رأسه وأمعانه. يحس بخضوات تقترب منه، ثم كأن يبدأ ما تضغط بخرقه فوق أنفه وفمه، يشهق رغما عنه وتقبض يده على شيء صلب، فيتذكر صندوق جواهر لم يكذ يفارقه على مدى سنوات، يندش كيف لم يستول عليه أحد الخدم الفارين بحياتهم، قبل أن ينسى كل شيء وتخمد حركته ويتلاشى وعيه .

كأن خمود جسد هذا الشيخ المريض يمد مراد في رقننه - على فراشه بشقته - بالطاقة، يجد نفسه يستفيق عمًا قبل، لا يسعده هذا لإدراكه أنها مجرد حلوة روح. يحاول استعادة اللحظات الأخيرة في حياة الشيخ الأقرب إليه من ذاته، فتعتم بصيرته، وتهجره تجلياته، على الأقل في ما يتعلق بهذه المسألة.

يعود خياله إلى البيت المتشقق وخميلة أشجار الليمون المجاورة له، فيفاجأ بأن الطيور قد هجرت أعشاشها، ولا يلمح الخلاسية ذات العينين العسليتين في الشباك. يراها خارجة من بين الأشجار وفي يدها سلة ليمون أصفر ميلل بقطرات ندى، تتبعها طفلة بنظرة تائهة متسائلة وشعر يتطاير خلفها بفعل النسيم الخفيف. يبتسم لمرآها وتتعلق عيناه بفتحة ثوبها حيث يبين مفرق نهديها، يتذكر اسمها: وردة. ثم يخبر كل شيء وتحلق روحه بعيدًا مصحوبة بغمامة من شذا الليمون.

القاهرة فبراير ٢٠١٨

شنغهاي سبتمبر ٢٠١٨